المشوق إلى ذكر الله تعالى

تأليف

أبي عبد الله محمد شومان بن أحمد الرملي

دار ابن القيم		دار ابن عفان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
1431هـ — 2010 م

رقم الإيداع	2002 / 19994
الترقيم الدولي	977 – 6052 – 70 – 3

دار ابن القيم للنشر والتوزيع
هاتف: ٤٣١٥٨٨٢- فاكس: ٤٣١٨٨٩١
الرياض:ص.ب : ١٥٦٤٧١
الرمز البريدى:١١٧٧٨
المملكة العربية السعودية
E-mail:ebnalqayyam@hotmail.com

دار ابن عفان للنشر والتوزيع
القاهرة:١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥٠٦٦٤٢٠- محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦
الإدارة:الجيزة برج الأطباء، أول شارع فيصل
تليفون ٣٥٦٩٣٦١٥- تليفاكس: ٣٥٦٩٢٨٥٠-٣٣٢٥٥٨٢٠
ص.ب ٨بين السرايات
جمهورية مصر العربية
E-mail:ebnaffan@hotmail.com

المشوق

إلى ذكر الله تعالى

المقـدِّمَة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛ فإن المستهدي بنور الإيمان، والناظر بعين البصيرة، قد علم تحقيقاً؛ أنه لا طريق إلى تحصيل سعادة الدنيا والآخرة، والفوز بالدرجات العالية، ونيل رضا الحق جلّ وعلا؛ إلا بمداومة ذكره سبحانه، وأخذ القلب حظاً وافراً من إجلاله وتعظيمه، وأدرك يقيناً أنه لا زكاة لهذا القلب ولا صلاح له؛ إلا بأن يكون الله عز وجل محبوبه وغاية مطلوبه، ولا سبيل إلى ذلك البتة إلا بمعرفته سبحانه والمواظبة على ذكره.

ولما فاز الموفقون بمعرفة هذا الأمر الجليل؛ جعلوا ذكر الله تعالى شغلهم وديدنهم، وشعارهم ودثارهم، وامتلأت قلوبهم منه، ولهجت ألسنتهم به، وألظوا به ليلهم ونهارهم، وفي جميع أحوالهم: ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾؛ حتى أصبح لهم كالماء للسمك، وغدا قرة عيونهم، ونعيم قلوبهم، ولذة أرواحهم، ومحط أفراحهم، إليه ينيبون،

وبه يتشبثون، ومنه يتزودون.

وهذا «المشوّق إلى ذكر الله تعالى» جعلته ضمن «سلسلة تزكية النفس»؛ ترغيباً في سلوك طريق هؤلاء السادة، وشحذاً لساكن العزائم للّحاق بساق القافلة، ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾.

وقد جاء الكتاب ـ بعد هذه المقدمة ـ خمسة أبواب:

● **الباب الأول:** في معنى الذكر وأنواعه ورُوحه.

وذكرت فيه أن الذكر يدخل فيه التسبيح والتهليل والتكبير ونحو ذلك، كما يدخل فيه سائر العبادات؛ فكل من كان في واجب أو مستحب؛ فهو في ذكر الله، وكل من كان تاركاً لمحرم أو مكروه؛ فهو في ذكر الله.

وذكرت فيه أيضاً أنواع الذكر، وما يثاب عليه صاحبه وما لا يثاب.

وذكرت أعلى أنواع الذكر، وأنه التحقق بمقام الإحسان.

وأخيراً ذكرت روح الذكر، وهو حضور القلب فيه؛ بتدبر المعنى والتعظيم لله عز وجل.

● **الباب الثاني:** في الأمر بذكر الله تعالى والتحذير من الغفلة.

وذكرت فيه آيات بينات، وأحاديث صحيحات، ومواعظ مرققات، سواء كانت من لطيف النثر أو رقيق الشعر؛ مما يلهج اللسان ويهيج القلب إلى ذكر الله تعالى.

وذكرت فيه أيضاً آداباً للذكر، وحذّرت من الابتداع فيه.

كما حذرت من الغفلة، وذكرت الزاجرات عنها، وأنها ـ أعني

الغفلة ـ أساس خراب مصالح الدنيا، وضياع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ مما أعده الله تعالى في الجنة لعباده الذاكرين.

ثم تكلمت عن الذكر الكثير، والأمر به، ومعناه، وطرق تحصيله وتيسيره، وفضائله، وأن أصحابه هم أهل السبق، وأن أكملهم وأعظمهم وأعلمهم بالله تعالى وأكثرهم ذكراً له هو نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

وذكرت أن الذكر القليل حال المنافقين، الذين شغلتهم أموالهم وأولادهم وشهواتهم عن ذكر الله عز وجل، الذي أُمروا أن يكونوا عبيداً له لا لغيره.

● **الباب الثالث: في فضل ذكر الله تعالى.**

وذكرت فيه فضائل كثيرة للذكر تُسيِّر القلوب إلى الله تعالى، وتهيجها إلى ذكره، وتجعل الناظر فيها ـ بإذن الله تعالى ـ من الذاكرين الله كثيراً؛ فبينت أن الذكر أفضل الأعمال، وأنه سبب لذكر الله تعالى للذاكر، وأنه يورث المحبة والمعية الخاصة، وأنه يعين على التوبة والاستغفار وسائر شرائع الإسلام، وأن مجالسه سبب لنيل المغفرة وتبديل السيئات حسنات، وسبب لتنزيل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، وذكرت فضائل أخرى كثيرة.

● **الباب الرابع: في أحوال المؤمنين عند ذكر الله تعالى.**

وشرحت في هٰذا الباب ما يحصل للذاكرين من الأحوال الرفيعة المحبوبة إلى الله عز وجل؛ كالوجل والطمأنينة، والخشوع والسكينة،

والخشية والبكاء؛ لا الزعيق والنعيق، والصعق والشهيق.

وهٰذا الباب ميزان؛ يعلو فيه الذكر السني، ويهوي فيه الذكر البدعي، وفرقان؛ يميز بين الأحوال الشرعية الصادقة والدعاوَى الشطحية الكاذبة.

● الباب الخامس: في أفضل الذكر وأحبه إلى الله تعالى.

وفيه أن تلاوة القرآن أفضل الذكر، وتدبره سبب لشرح الصدور، وتنوير القلوب، ومجلبة لكل خير في الدنيا والآخرة.

ثم ذكرت أن أفضل الذكر بعد ذلك: كلمة «لا إلٰه إلا الله»، ثم الكلمات الثلاث: «سبحان الله»، و «الحمد لله»، و «الله أكبر»، وكذا من أفضل الذكر قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، والصلاة على النبي ﷺ.

وبينت أنه ينبغي المحافظة على أذكار الصباح والمساء، وما يقال دبر الصلوات المكتوبات، وعند النوم والاستيقاظ، وكذا المحافظة على الدعاء في سائر الحالات، لجميع الحاجات، وخاصة الدعاء بأسماء الله الحسنى.

وختمت الكتاب ببيان ضرورة دوام طلب العون من الله تعالى على ذكره.

وأسأله سبحانه ـ وهو الجواد الكريم ـ أن يجعل هٰذا الكتاب هادياً للراغبين، وحادياً للسائرين، ومهيّجاً قلوبهم إلى ذكره، وخالصاً لوجهه، ومتقبّلاً بمنّه وكرمه.

وكتب

أبو عبد الله

٢٣ / ذو القعدة / ١٤٠٩ هـ

عمّان

الباب الأول

في معنى "الذكر"
وأنواعه وروحه

فصل

في معنى الذكر

قال القرطبي(١): أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسُمِّي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي؛ غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني؛ صار هو السابق للفهم.

وقال النووي(٢): قال الإمام أبو الحسن الواحدي: أصل الذكر في اللغة: التنبه على الشيء، ومن ذَكَّرَك شيئاً؛ فقد نبهك عليه، وإذا ذَكَّرْته؛ فقد نبهته عليه. قال: ومعنى الذكر: حضور المعنى في النفس، ثم يكون تارة بالفعل، وتارة بالقول، وليس بشرط أن يكون بعد نسيان. هٰذا كلام الواحدي.

وقال(٣): اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى؛ كما قاله سعيد بن جبير(٤) رضي الله عنه وغيره من العلماء.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢ / ١٧١).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (٣ / ١١١).

(٣) «الأذكار» (ص ٧).

(٤) انظر قوله رحمه الله: (ص ١٣٢).

وقال شيخ الإسلام[1]: إن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب؛ مما يقرب إلى الله؛ من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر؛ فهو من ذكر الله، ولهٰذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقّه فيه الفقه الذي سمّاه الله ورسوله فقهاً؛ فهٰذا أيضاً من أفضل ذكر الله.

وقال ابن رجب[2]: الذكر المطلق[3] يدخل فيه الصلاة وتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه والعلم النافع، كما يدخل فيه التسبيح والتكبير والتهليل.

وقال ابن سعدي[4]: كل من كان في عبادة؛ فهو في ذكر الله، ومن ترك منهياً لله؛ فهو في ذكر الله.

وقال[5]: الذكر لله الذي أمر به وأثنى على الذاكرين وذكر جزاءهم العاجل والآجل؛ هو عند الإطلاق يشمل جميع ما يقرب إلى الله؛ من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك؛ فكله داخل في ذكر الله.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٦٦١).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٤٢٢).

(٣) وقد يأتي الذكر في القرآن أو السنة مقيداً؛ فيكون المراد منه بحسب قيده؛ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الحج: ٣٦].

(٤) «المواهب الربانية» (ص ٥).

(٥) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٤٨٤ ـ ط المدني): «أصول وكليات في التفسير».

وقال[1]: الذكر لله الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله، وما رتب عليه من الجزاء؛ يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية؛ فكل ما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله؛ فهو ذكر لله، والله تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره؛ فهي ذكر لله.

ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله، والثناء عليه بنعمه، وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل، والصلاة على النبي ﷺ.

ومن ذكره ذكر أحكامه؛ تعلمها وتعليمها، ولهٰذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها: مجالس الذكر.

وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

* * *

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص ٢٠١).

فصل

في أنواع الذكر وما يثاب عليه منه

الأول: نطق اللسان بالأذكار؛ من تلاوة، وتسبيح، وتهليل، وتكبير، ونحوها.

الثاني: نطق القلب بهٰذه الأذكار.

الثالث: اشتراك اللسان والقلب بالنطق؛ بأن يتفرغ القلب مع اللسان فيه.

الرابع: استحضار القلب لمعاني الأذكار دون نطق اللسان.

الخامس: استحضار القلب لها مع نطق اللسان بالذكر.

السادس: استحضار عظمة الله تعالى وجلاله وكماله إجمالاً أو بالتفصيل، بتدبر أسمائه الحسنى وصفاته العلى الثابتة له في الكتاب والسنة؛ بتناول كل اسم وصفة منها، والتفكر في معانيها، واستحضار عظمة الموصوف بها وكماله وجماله، وتنزيهه عما لا يليق به، ثم امتلاء القلب من ذٰلك، وحصول ثمرته من المحبة لله تعالى والخوف منه والرجاء منه، وخشوع القلب وإخلاصه له، وطمأنينته بذكره، وتوكله عليه، وسائر أحوال القلب الإيمانية.

ويدخل في هٰذا الذكر التفكر في مخلوقات الله تعالى البديعة، ويدخل فيه أيضاً ذكر نعمه السابغة الظاهرة والباطنة، وجوده وكرمه وتفضله على عباده؛ مما يهيّج الطائعين منهم والمقصرين إلى شكره.

وهٰذا النوع من الذكر ـ أعني السادس ـ أعلى أنواع الذكر لله، خاصة إذا التحق به:

النوع السابع: بأن يضاف إلى هٰذه الأحوال الشريفة الرفيعة نطق اللسان بالأذكار الشرعية الصحيحة؛ بتدبر معانيها، وتفهم أسرارها ومراميها؛ فإنها تارة تعبر عما في القلب، وتارة تجلبه وتوجبه.

ويكون هٰذا الذكر نافعاً بتحقق:

النوع الثامن: وهو الانقياد والتسليم لأوامر الله تعالى؛ فيسارع العبد إلى عمل الصالحات، واجتناب المنهيات؛ محبة لله تعالى، وخوفاً منه، ورغبة إليه، وإرادة لوجهه، ومتابعة لرسوله ﷺ.

ومع مداومة هٰذا الذكر، وامتلاء القلب منه، والصبر عليه؛ لا بد أن يفتح الفتاح العليم والرزاق الكريم على عبده، ويوفقه لأحسن الأحوال وأرفع المقامات وأعلى الدرجات، إلى أن يتولاه ويصطفيه، ويجعله من أحبائه المقربين، الذين عبدوه بالإحسان؛ كأنهم يرونه، نسأل الله تعالى من فضله العظيم.

فصل

قال القاسمي[1]: اعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته؛ فيتولد

---

(١) «محاسن التأويل» (٢ / ٣١٥).

منه الهيبة والإجلال، وتارة يكون لقدرته؛ فيتولد منه الخوف والحذر، وتارة لنعمته؛ فيتولد منه الشكر، ولذٰلك قيل: ذكر النعمة شكرها، وتارة لأفعاله الباهرة؛ فيتولد منه العبر، فحق المؤمن أن لا ينفك أبداً عن ذكره تعالى على أحد هٰذه الأوجه.

قلت: ولا داعي للحصر بهٰذه الوجوه الأربعة، بل يذكره بوعده؛ فيتولد منه الرجاء، ويذكره باطلاعه على السر والعلانية؛ فتتولد منه المراقبة، ويذكره بجوده وكرمه وتفضله وستره على عبده المقصر في حقه؛ فيذهل لذٰلك، ويتولد منه الحياء، ويهيج بسببه الشكر، ويذكره بلطفه؛ فتتولد منه الرغبة في كل خير، والاستشراف لأعلى الدرجات، والتطلع لسني الأحوال ورفيع المقامات.

وبالجملة يذكر الله تعالى بكل أسمائه الحسنى وصفاته المجيدة، ويتفكر في أفعاله الباهرة الحكيمة، الدائرة بين الفضل والعدل؛ فيزداد يقيناً بشرعه، ويتولد له عن كل اسم وصفة ثمرته من الأحوال الإيمانية، والمعارف الإلٰهية، وسائر الفتوحات الربانية، ما لا يمكن وصفه والتعبير عنه؛ مما هو نموذج عن نعيم الجنة، ولأصحابه قرة عيونهم، وجنة دنياهم، وأعلى مطالبهم، وأفضل مكاسبهم، كيف لا وهو ثمرة معرفة أعظم شيء وأكبر شيء، وهو الله رب العالمين؟!

قال بعضهم: اعلم أن الذكر يأتي على وجوه: فتارة يذكر الله لعظمته؛ فيتولد منه الهيبة والإجلال، وتارة يذكره لقدرته وغناه وسطوته؛ فيتولد منه الخوف والحذر، وتارة يذكره لفضله ورحمته وجوده وكرمه؛ فيتولد منه الرجاء، وتارة يذكره بوعده بالنظر إليه؛ فيتولد منه الشوق، وتارة يذكره بإسدائه النعم والخيرات، ودفعه البلاء

والمضرات؛ فيتولد منه الشكر، وتارة بالكمال والجمال؛ فيتولد منه المحبة، وتارة يذكر بأنه الذي له الأمر والملك والخلق والإيجاد والإبداع والضر والنفع، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ فيتولد منه الصبر، وتارة يذكره بأنه الكافي في المهمات، المتكفل بالأرزاق، بيده المنع والعطاء، ولا يكون إلا ما أراده وقدّره؛ فيتولد منه التوكل، وتارة يذكره بما نصب من الأدلة والعلامات والشواهد والآيات؛ فيتولد منه زوائد اليقين.

فصل

أما النوع الأول والثالث من الذكر؛ فلا شك أن صاحبه مثاب.

قال الحافظ[1]: الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب؛ فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم لله تعالى ونفي النقائص عنه؛ ازداد كمالاً، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض؛ من صلاة أو جهاد أو غيرهما؛ ازداد كمالاً، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك؛ فهو أبلغ الكمال. اهـ.

وأما النوع الثاني من الذكر؛ فلا ثواب فيه[2]، ولا أصل له في

---

(١) «فتح الباري» (١١ / ٢٠٩). وانظر: «المرقاة» (٥ / ١٠)، و «الفتوحات الربانية» لابن علان (١ / ١٠٨)، و «مدارج السالكين» (١ / ٣٣١)، و «الوابل الصيب» (ص ١١٤ و١١٥)، و «الاستقامة» (٢ / ١٧).

(٢) وبهذا قال القاضي عياض، وأقره البُلقيني، ووافقهما الهيثمي في «شرح المشكاة»؛ فقال: «قد يقال: إن أريد الثواب من حيث اللفظ؛ فالأصح عدمه، أو من حيث =

الشرع، كما أخبرني به العلّامة الألباني.

وقال النووي[1]: اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها ـ واجبة كانت أو مستحبة ـ لا يحسب شيء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به، بحيث يُسمع نفسه إذا كان صحيح السمع لا عارض له[2].

وأما النوع الرابع؛ ففيه ثواب بلا ريب؛ إذ هو نوع من الفكر، وإن كان دون النوع الخامس؛ لاشتراك القلب واللسان في هذا.

فصل

قال ابن القيم[3]: الذكر أنواع:

الأول: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى، بإنشاء الثناء بهما من الذاكر، نحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر.

الثاني: الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، ونحو ذلك.

= المعنى واشتغال النفس به؛ فالحق الثواب». «الفتوحات الربانية» (١ / ١٠٧).

(١) «الأذكار» (ص ٧).

(٢) وذهب مالك رحمه الله إلى الاكتفاء بحركة اللسان بالأحرف دون إسماع النفس، وهو الحق ـ إن شاء الله ـ؛ لأنه يقع عليه مسمى الكلام والقراءة، وبمثل هذا قال شيخ الإسلام. انظر: «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٤٣).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ١١٢) مختصراً وبتصرف يسير.

الثالث: ذكر أمر الله تعالى ونهيه وأحكامه؛ إخباراً عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

الرابع: ذكر الله تعالى عند أمره بالمبادرة إليه، وعند نهيه بالهرب منه.

الخامس: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده.

قال: فهذه خمسة أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة.

وقال في «الفوائد»[1]: أفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

وقال حسنين مخلوف[2]: وذكر العبد ربه عز وجل يكون باللسان وبالجنان والجوارح، ويحصل (الأول) بالنطق بما يدل على تنزيهه تعالى وتمجيده وتعظيمه وتحميده.

و (الثاني) بالتفكر في دلائل وحدانيته تعالى في ذاته العلية، وصفاته السنية، وأفعاله الحكيمة، وفي دلائل التكاليف الإلٰهية بالأوامر والنواهي، وفي الوعد والوعيد والمثوبة والعقوبة؛ حتى يكون العبد على يقين في دينه اعتقادات وأعمالاً؛ فيُقبل على الطاعات، ويحجم عن المحظورات، ببصيرة نافذة، وإخلاص تام، وقلب سليم، وعلم

---

(١) (ص ٢٤٧).

(٢) «أسماء الله الحسنى» (ص ١١ و١٢).

ويقين، وبالتفكر في عظم المخلوقات، وما فيها من أسرار ودلائل وحِكم؛ حتى يعلم قدرة صانعها وحكمته، ويشرق في قلبه نور العلم والمعرفة والحكمة والهداية.

و(الثالث) بالاستغراق في فعل الطاعات مع اجتناب جميع المنكرات؛ فلا يشغل جوارحه بغير ما فيه رضا مولاه.

قال الحافظ(١): قال الفخر الرازي: المراد بذكر اللسان: الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد. والذكر بالقلب: التفكر في أدلة الذات والصفات، وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهي؛ حتى يطّلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله. والذكر بالجوارح: هو أن تصير مستغرقة في الطاعات، ومن ثم سمّى اللَّهُ الصلاة ذكراً؛ فقال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

قال: ونقل عن بعض العارفين: الذكر على سبعة أنحاء؛ فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

وقال القاضي عياض(٣): ذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان.

وذكر القلب نوعان:

---

(١) «الفتح» (١١ / ٢٠٩). وانظر: «التفسير الكبير» (٢ / ١٥٨ و١٥٩).

(٢) الجمعة: ٩.

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧ / ١٦).

أحدهما ـ وهو أرفع الأذكار وأجلها ـ: الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي؛ فيمتثل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه، ويقف عما أشكل عليه.

وأما ذكر اللسان مجرداً؛ فهو أضعف الأذكار. اهـ.

وقال المراغي[1]: وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب وملاحظة معاني القول لا يجدي نفعاً؛ فكم رأينا من ذوي الأوراد والأدعية الذين يذكرون الله كثيراً بالمئين والآلاف ولا يفيدهم ذٰلك معرفة بالله ولا مراقبة له؛ لأن ذٰلك أصبح عادة لهم تصحبها عادات أخرى منكرة، ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان. اهـ.

(تنبيه): إياك وترك الذكر باللسان؛ لعلمك أنه أضعف الأذكار، أو خوفاً من الرياء[2]، أو طلباً لمواطأة القلب له، بل اذكر بلسانك مخلصاً في ذٰلك، مجتهداً في حضور قلبك، مستعيناً بالله عز وجل.

واعلم أن ذكر اللسان مجرداً وإن كان أضعف الأذكار؛ فإنه ذكر شريف، وسبب لحبس اللسان عن الفحش والغيبة وسائر آفات اللسان، وهو أيضاً طريق موصل لتحقيق ذكر القلب؛ فإن العبد لا يزال يحرك لسانه بذكر الله تعالى حتى يفتح الله عليه ويوفقه لاستحضار معنى ما يقول وتدبره، حتى يصل إلى الحضور التام والتعظيم والإجلال للمذكور

---

(١) «تفسيره» (٩ / ١٥٦).

(٢) قال النووي في «الأذكار» (ص ٦): «لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعاً، ويقصد وجه الله تعالى».

سبحانه وتعالى.

وقال بعضهم[1]: لا تترك الذكر لعدم حضورك فيه مع الله؛ لأن غفلتك عن ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره؛ فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، وما ذٰلك على الله بعزيز.

وقال ابن القيم[2]: وذكر الله على الغفلة وعلى كل حال خير من نسيانه بالكلية، والألسن متى تركت ذكر الله ـ الذي هو محبوبها ـ اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه.

وقال شيخ الإسلام[3]: والذكر يكون بلسان الإنسان، ولٰكن يكون لقلبه من ذٰلك نصيب؛ إذ الأعضاء لا تتحرك إلا بإرادة القلب، لٰكن قد تكون الغفلة غالبة عليه، وذٰلك الكلام خير من العدم، والله يحبه ويأمر به.

* * *

(١) انظر: «الفتوحات الربانية» (١ / ١٠٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٣ / ٤٥).

(٣) «الاستقامة» (٢ / ١٧).

فصل
في روح الذكر

اعلم أن حضور القلب في العبادة من ذكر وغيره هو روحها، فكما أنه لا حياة للجسد بلا روح؛ كذلك كل عبادة لا حضور فيها فإنها ميتة لا روح فيها.

وأعني بحضور القلب: تنبهه لعظمة الله تعالى وجلاله، واستشعاره لمراقبته، مع تدبر معنى ما يجريه على لسانه من تلاوة وذكر، وهو النوع السادس من أنواع الذكر التي قدمنا.

قال شاه ولي الله[1]: روح الصلاة: هي الحضور مع الله، والاستشراف للجبروت، وتذكر جلال الله، مع تعظيم ممزوج بمحبة وطمأنينة.

وروح الذكر: الحضور والاستغراق في الالتفات إلى الجبروت.

وقال النووي[2]: المراد من الذكر حضور القلب؛ فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر؛ فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل

---

(١) «حجة الله البالغة» (٢ / ٦٧).

(٢) «الأذكار» (ص ٩).

معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة؛ لاشتراكهما في المعنى المقصود.

وقال ابن سعدي[1]: الصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل؛ فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطي.

وقال[2]: وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه.

وقال ابن القيم[3]: أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يورث المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَعُ عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هٰذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها؛ فثمرة ضعيفة.

وقال[4]: إذا صار الذكر شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبع له؛ فهٰذا هو الذكر الذي يسد الخلة ويفني الفاقة؛ فيكون صاحبه غنياً بلا مال، عزيزاً بلا عشيرة، مهيباً بلا سلطان.

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٨٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (١ / ١٨٦ ـ ط المدني).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ١١٥).

(٤) «الوابل» (ص ٨١).

وقال سيّد قطب[1]: ذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان، وإن لم يخفق له القلب، وإن لم تعش به النفس، إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية والخوف؛ لن يكون ذكراً، بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه، إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة والخشية والتقوى، إنما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه، والالتجاء إليه. اهـ.

وقد تقدم قول القرطبي: أن أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له.

وقال ابن الجوزي[2]: الذكر له شرطان: حضور القلب في تحريره، وبذل الجهد في تكثيره، فإن أحببت أن تكون في الراسخين الأقدام في هٰذا المقام؛ فحرر الذكر على الإحسان، وكثره بقدر الإمكان.

وقال[3]: تأملت على أكثر الناس عباداتهم؛ فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة؛ فعادتهم عبادة حقيقية، فإن الغافل يقول: سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات، أو عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك، فيقول: سبحان الله!

ولو أن إنساناً تفكر في رمّانة، فنظر في تصفيف حبها، وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء

---

(١) «في ظلال القرآن» (١ / ٧٢٤).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٩).

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٣٩٧).

عليه يحفظه، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم. . . إلى غير ذلك من المخلوقات؛ أزعجه هٰذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله! وكان هٰذا التسبيح ثمرة الفكر؛ فهٰذا تسبيح المتيقظين.

وما تزال أفكارهم تجول، فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة، وكذٰلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذٰلك الفكر قلق القلب وندم النفس، فيثمر ذٰلك أن يقول قائلهم: أستغفر الله، فهذا هو التسبيح والاستغفار.

فأما الغافلون؛ فيقولون ذٰلك عادة، وشتان ما بين الفريقين!!

وقال[1]: من الذاكرين من غلب على قلبه حبه للمذكور؛ فلا يزال في الذكر والتعبد، ومن الذاكرين من صار الذكر له إلْفاً لا عن كلفة، فما لَه همّ غيره؛ فهو يذكر أبداً على جهة الحضور.

(فائـدة): قال ابن الجوزي: أول ما يحتاج إليه العازم على ذكر الله التفرغ من الشواغـل الظاهرة، ثم تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة، ثم قطع الفكر عن قلبه، ثم إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه، ثم استفراغ الوسع في تجويد الذكر، ثم إطالة المجلس ما أمكنه إطالته، ثم التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه من الرقة باجتناب الملهيات من حيث يقوم عن الذكر إلى أن يعود إليه؛ فهذه الشرائط السبع مَن راعاها حق الرعاية؛ بلغ من مراد الذاكرين أقصى الغاية. اهـ.

---

(١) انظر: «التبصرة» (٢ / ٣٠٦ و٣٠٧).

وللأخضري[1]:

واعْلَمْ بأنَّ طُرُقَ التَّطْهيرِ كَثيرَةٌ عند ذَوِي التَّنْويرِ
أَقْرَبُها نَفْعاً طَرِيقُ الذِّكْرِ بِسُرْعَةٍ يُزِيلُ كُلَّ سِتْرِ
لٰكنْ بِشَرْطِ الخَوْفِ وَالحُضُورِ مع ادِّكَارِ هَيْبَةِ المَذْكُورِ
فَمَنْ تَكُ الغَفْلَةُ والأمانُ فِي ذِكْرِه حَجَبَه الشَّيْطانُ
وَحَالَ بَيْنَه وَبَيْنَ رَبِّهْ بقَذْفِه وَسَاوِساً في قَلْبِهْ
وأحْدَقَتْ بِقَلْبِه غِشَاوَهْ فَلَمْ يَذُقْ بِالذِّكْرِ مِنْ حَلاوَهْ

وفي هٰذا المعنى قال ابن الجوزي[2]: لا تطمعوا في وجدان حلاوة الذكر، وقلوبكم مشغولة بوسواس الفكر، كيف يكون حبيب الرحمٰن مَن هو للشيطان سمير؟! كيف يطمع في الوصول مَن لا يَجِدُّ في المسير؟!

ثم قال الأخضري:

كَمْ باذِلٍ قُواه في الأذكَارِ ولَمْ يَجِدْ للذِّكْرِ من ثِمارِ
وذاكَ من وَساوِسِ الشَّيْطانِ يَهِيجُ بالغَفْلَةِ والأمانِ
فَعالِجِ الخَواطِرَ الرَّدِيّهْ بالدَّفْعِ فهيَ حُجُبٌ قَوِيّهْ
هَيْهاتَ أنْ يَطْمَعَ في الإبْصارِ مَنْ قَلْبُه في الهَذيان جاري
هَلْ يَرْتَقِي بسُلَّمِ المَعَالي مَنْ قَلْبُه فِي عَالَمِ الخَيالِ

---

(١) «مجموعة الرسائل المنيرية» (آخر الجزء الرابع).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ١١٨).

لَـنْ يَسْتَقِيـمَ القَلْـبُ للتَّـوْجِيـهِ　　مـا دامَ هٰـذا الهَـذَيـانُ فيـهِ
كَيْـفَ يَصِـحُّ فَتْـحُ بـابِ القُـدْسِ　　ما دام في القَلْبِ غُبارُ النَّفْسِ
لَـنْ يَصِـلَ العَبْـدُ إلـى مَـوْلاهُ　　مُـدَّةَ مـا لَيْـلُ الهَـوى يَغْشـاهُ
حَتَّـى إذا نَهـارُه تَجَلَّـى　　بِفَتْـحِ بَـابِ المَلَكُوتِ الأعْلى

وقال:

فَمَـنْ يَكُـنْ مُشْتَهِـراً بِـالـذِّكْـرِ　　فَشَـرْطُـه مِـنْ خَشْيَـةٍ وفِكْـرِ
جَـرى لِسـانُـه عَلـى الأذْكَـارِ　　ومَطَـرَتْ سَحـائِـبُ الأنْـوَارِ
حتَّـى إذا مُـزِجَـتِ الأذْكَـارُ　　بـالقَلْـبِ واسْتَنَـارَتِ الأفْكَـارُ
تَـأَنَّـسَ القَلْـبُ بِـذِكْـرِ اللـهِ　　وَصـارَ طُـولَ الدَّهْـرِ غَيـرُ سَـاهِ

* * *

الباب الثاني

الفصل الأول: في الأمر بذكر الله تعالى والتحذير من الغفلة.

الفصل الثاني: في الذكر الكثير.

الفصل الأول
في الأمر بذكر الله تعالى والتحذير من الغفلة

قال الله تعالى آمراً رسوله ﷺ والأمة تبعاً له:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[1].

قال الزمخشري[2]: ﴿واذكر اسم ربك﴾، ودم على ذكره في ليلك ونهارك، واحرص عليه، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح، وتهليل، وتكبير، وتمجيد، وتوحيد، وصلاة، وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعة ليله ونهاره، ﴿وتبتل إليه﴾؛ وانقطع إليه.

وقال أبو السعود[3]: أي: وانقطع إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته.

وقال القاسمي[4]: أي: أخلص إليه بتجريد النفس عن غيره

---

(١) المزمل: ٨.

(٢) «الكشاف» (٤ / ١٥٣).

(٣) «إرشاد العقل السليم» (٥ / ٧٨٤).

(٤) «محاسن التأويل» (١٦ / ٣٢٠).

إخلاصاً عظيماً.

وفي «مدارج السالكين»[1]: التبتل يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً، لا يصح إلا بهما:

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله؛ خوفاً منه، ورغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله.

والاتصال لا يصح إلا بعد هٰذا الانفصال، وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له؛ حباً وخوفاً ورجاءً وإنابة وتوكلاً. اهـ.

وقال الشاعر[2]:

تَبَتَّلَتْ رُوحِي لَكُمْ فِي الحُبِّ تَبْـ ... ـتِيلاً مُرَتَّلاً ذِكْرَكُمْ بِالمَدْحِ تَرْتِيلاً

فصل

قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3].

قال ابن سعدي[4]: أي: أول النهار وآخره؛ فدخل في ذٰلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير في هٰذه الأوقات.

(فائدة): قال شيخ الإسلام[5]: وما في القرآن من قوله: ﴿وَٱذْكُرِ

---

(١) (٢ / ٣٠).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ٣٨).

(٣) الإنسان: ٢٥.

(٤) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٣٥٠).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٢٩). وانظر: (ص ٥٦٢).

ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[1]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[2]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً[4].

قال: فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذٰلك هو بالكلام التام المفيد.

وقال[5]: المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره «بجملة تامة»، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر والقرب إلى الله، ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذٰلك من المطالب العالية والمقاصد السامية. وأما الاقتصار على «الاسم المفرد» مظهراً أو مضمراً[6]؛ فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد.

وقال: ولو كرر الإنسان اسم «الله» ألف ألف مرة؛ لم يصر بذٰلك

---

(١) الأعلى: ١.

(٢) الأعلى: ١٤ و١٥.

(٣) الواقعة: ٧٤ و٩٦.

(٤) أي: أن يقول الذاكر: الله الله...

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٣٣).

(٦) مضمراً: قولهم: هو هو... قال شيخ الإسلام (١٠ / ٥٥٦): «فهٰذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضاً عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين».

مؤمناً، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته. اهـ.

وقال الأخضري[1]:

وِمِنْ شُروطِ الذِّكْرِ أنْ لا يُسْقِطا ... بَعْضَ حُروفِ الاسْمِ أو يُفَرِّطا
في البَعْضِ مِنْ مَنَاسِكِ الشَّرِيعهْ ... عَمْداً فتِلْكَ بِدْعَةٌ شَنِيعهْ
والرَّقْصُ والصُّراخُ والتَّصْفيقُ ... عَمْداً بِذِكْرِ اللهِ لا يَليقُ
وإِنَّمَا المَطْلوبُ في الأذْكَارِ ... الذِّكْرُ بِالخُشُوعِ والوَقارِ
وغَيْرُ ذا حَرَكَةٌ نَفْسِيّهْ ... إلاَّ مَعَ الغَلَبَةِ القَوِيّهْ
فواجِبٌ تَنْزِيهُ ذِكْرِ اللهِ ... عَلَى اللَّبيبِ الذَاكِرِ الأوَّاهِ
عَنْ كُلِّ ما تَفْعَلُهُ أَهْلُ البِدَعْ ... ويُقْتَدَى بِفِعْلِ أرْبابِ الوَرَعْ
فَقَدْ رَأَيْنا فِرْقَةً إنْ ذَكَرُوا ... تَبَدَّعُوا وَرُبَّما قَدْ كَفَرُوا
وصَنَعُوا في الذِّكْرِ صُنْعاً مُنْكَرا ... صَعْباً فَجاهِدْهُمْ جِهاداً أكْبَرا
خَلُّوا مِنِ اسمِ اللهِ حَرْفَ الهاءِ ... فَألْحَدُوا في أعْظَمِ الأسْمَاءِ
لَقَدْ أتَوْا واللهِ شَيْئاً إدّا ... تَخِرُّ مِنْهُ الشامِخاتُ هَدّا
والألِفُ المَحْذُوفُ قَبْلَ الهاءِ ... قَدْ أسْقَطُوه وَهْوَ ذُو إخْفاءِ
وغَرَّهُمْ إسْقاطُه في الخَطِّ ... وكُلُّ مَنْ يَتْرُكُهُ فَمُخْطِي
قَدْ غَيَّرُوا اسْمَ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ ... وزَعَمُوا نَيْلَ المَراتِبِ العُلاَ
تَغُرُّهُمْ مَذَاقَةٌ طَبْعِيّهْ ... سَبَبُهَا حَرَكَةٌ نَفْسِيّهْ

---

(١) «مجموعة الرسائل المنيرية» (آخر الجزء الرابع).

فَـزَعَمُـوا أنَّ لَهُـمْ أَسْـرَارا　　وَأَنَّ فِـي قُلُـوبِهِـمْ أَنْـوَارا
وزَعَمُـوا أَنَّ لَهُـمْ أحْـوَالا　　وَأَنَّهُـمْ قَـدْ بَلَغُـوا الكَمَـالا
والقَومُ مَا يَدْرُونَ ما الأحْوالُ　　فَكَـوْنُهـا لِمِثْلِهِـمْ مُحَـالُ
حاشا بِساطُ القُدسِ والكَمَالِ　　تَطَـؤُهُ حَـوَافِـرُ الجُهَّـالِ
قَدِ ادَّعَوا مِنَ الكَمَالِ مُنْتَهى　　يَكِلُّ عَنْ تَحْصِيلِهِ أُولُو النُّهَى
والجَاهِلُونَ كَالحَمِيرِ المُوكَفَهْ　　والعَـارِفُـونَ سَـادَةٌ مُشَـرَّفَـهْ
وَهَـلْ يُـرَى بِسَاحِـلِ الأنْـوارِ　　مَنْ لَجَّ فِي بَحْرِ الظَّلامِ سَارِي
وقَـالَ بَعْـضُ السَّـادةِ المُتَّبِعَـهْ　　فـي رَجَزٍ يَهْجُو بِهِ المُبْتَدِعَـهْ
ويـذْكُـرُونَ اللــهَ بـالتَّغْبِيـرِ　　ويَشْطَحُـونَ الشَّطْـحَ كـالحَمِيرِ
ويَنْبَحُـونَ النَّبْـحَ كَـالكِـلَابِ　　طَرِيقُهُمْ لَيْسَتْ عَلَى الصَّوابِ

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ عام في الأذكار؛ من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك. قاله الزمخشري[٢].

والمراد بذكر الله في نفسه؛ "كونه عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضراً لصفات الكمال والعز والعلو والجلال والعظمة.

---

(١) الأعراف: ٢٠٥.
(٢) «الكشاف» (٢ / ١١١).

أفاده الرازي[1].

وقال البغوي[2]: قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور، وبالتضرع إليه في الدعاء والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح بالدعاء.

وقال ابن كثير[3]: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة.

وفي قوله تعالى: ﴿ودون الجهر﴾؛ قال الزمخشري[4]: ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكر.

وفي تفسير الآية قال المراغي[5]: أي: واذكر ربك الذي خلقك وربّاك بنعمه في نفسك؛ بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك، وحاجتك إليه؛ متضرعاً له، خائفاً منه، راجياً نعمه، واذكره بلسانك مع ذكره في نفسك ذكراً دون الجهر برفع الصوت من القول، وفوق التخافت والسر، بل ذكراً قصداً وسطاً. اهـ.

وفي هٰذه الآية ذكر الله تعالى آداباً لذكره؛ كما قال القاسمي[6]:

الأول: أن يكون في نفسك؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص،

---

(١) «التفسير الكبير» (١٥ / ١١٠)

(٢) «معالم التنزيل» (٢ / ٥٩٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٢٨١).

(٤) «الكشاف» (٢ / ١١١).

(٥) «تفسيره» (٩ / ١٥٦).

(٦) «محاسن التأويل» (٧ / ٣٣٢ ـ ٣٣٣) مختصراً.

وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

الثاني: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير؛ ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية.

الثالث: أن يكون على وجه الخيفة؛ أي: الخوف والخشية[1] من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المؤاخذة على التقصير في العمل؛ لتخشع النفس، ويخضع القلب.

الرابع: أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حسن التفكر.

الخامس: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿ودون الجهر﴾.

السادس: أن يكون بالغدو والآصال؛ أي: في البكرة والعشيّ؛ فتدل الآية على مزية هٰذين الوقتين[2]؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش. اهـ.

وقال ابن سعدي[3]: وهٰذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي: الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً، خاشعاً، متضرعاً، متذللاً، ساكناً، متواطئاً عليه

(١) قال ابن سعدي في «تيسير الكريم الرحمٰن» (٢ / ١٨٥): «وعلامة الخوف: أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل، وإصلاحه، والنصح به».

(٢) قال المراغي (٩ / ١٥٦): «وأجمل الأوقات لهٰذا الذكر وقتان: أول النهار وآخره؛ لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به؛ كان جديراً بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما».

(٣) «التيسير» (٢ / ١٨٦).

قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه، وعدم غفلة؛ فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ[(١)]. اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾؛ فقال ابن سعدي[(٢)]: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن مَن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على مَن كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وقال الرازي[(٣)]: قوله: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائماً، وأن لا يغفل الإنسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية والقوة الإنسانية.

وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه، عن أبيه؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللهَ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللهَ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللهَ. جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ». الحديث[(٤)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم (١ / ٤٩٣)، وغيرهما؛ عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ».
وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» برقم (٥٩٤).

(٢) «التيسير» (٢ / ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٣) «التفسير الكبير» (١٥ / ١١٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢ / ٤٢١)، =

قال ابن القيم[1]: الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها؛ فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه.

وفي «التذكرة في الوعظ»[2]:

يَا طُولَ حُزْنِ الغَافِلِينَا ... عَنْ ذِكْرِ رَبِّ العَالَمِينَا
يَا هضمَهُمْ يَوْماً يَرَوْنَ ... ثَوابَ ذِكْرِ الذَّاكِرِينَا
سَتَطُولُ حَسْرَتُهُمْ لِمَا ... كَانُوا بِهِ مُتَشَاغِلِينَا
يَتَحَسَّرُونَ عَلَى فَوَا ... تِ مِنْ فِعَالِ الطَّائِعِينَا

فصل

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

قال ابن القيم[4]: عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم؛ فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها، ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها: ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته

= وهذا لفظه، وصححه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه أحمد (٥ / ١٣٦) وغيره، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم (٩٥٤).

(١) «الوابل الصيب» (ص ٩٠).

(٢) (ص ١٠٣).

(٣) الحشر: ١٩.

(٤) «شفاء العليل» (ص ١٣٥).

والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فأنساهم ذٰلك لما نسوه، وأحدث لهم هٰذا النسيان نسياناً آخر، وهٰذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه؛ فذكّرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها؛ فجازى أولٰئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره، فلما خلت قلوبهم من ذلك؛ لم يجدوا عن ضده محيصاً.

وقال ابن الجوزي[(١)]: من كثر في الدنيا شغله؛ اسودّ قلبه، وأظلم طريقه، وكثر همّه، ونصب بدنه، وصار مهون الوقت، طائش العقل، معقود اللسان عن الذكر، مقيد الجوارح عن الطاعة، من قلبه في كل واد شعبة، ومن عمره لكل شغل حصة. اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[(٢)].

قال ابن سعدي[(٣)]: غفل عن الله؛ فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿واتبع هواه﴾؛ أي: صار تبعاً لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه.

وقال شيخ الإسلام[(٤)]: الغفلة والشهوة أصل الشر. واستدل بالآية.

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٣).

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) «التيسير» (٣ / ١٥٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ٢٨٩).

وقال ابن القيم[1]: فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل؛ فلينظر: هل هو من أهل الذكر، أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة؛ كان أمره فرطاً.

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع؛ أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف؛ أي: قد أفرَطَ، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة، والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هٰذه الصفات؛ فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك؛ فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره؛ فليتمسك بغرزه.

وقال رحمه الله: وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته؛ كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب؛ لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه؛ فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، ولأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسودّ وركبه الران؛ فسد تصوره وإدراكه؛ فلا يقبل حقاً، ولا ينكر باطلاً، وهٰذا أعظم عقوبات القلب، وأصل

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٥١).

ذٰلك من الغفلة واتباع الهوى؛ فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره. اهـ.

وقال ابن الجوزي[1]: اعلم يا ابن آدم أنك مريض القلب من جهتين:

إحداهما: مخالفتك أمر الله.

والأخرى: غفلتك عن ذكر الله.

ولن تجد طعم العافية حتى تكون على طاعة الله مقيماً، ولذكر الله مديماً؛ فعالج مرض المخالفة بالتوبة، ومرض الغفلة بالإنابة، وإلا؛ فاعلم عما قليل أنك هالك، ومنتقل من أهلك ومالك إلى قبضة ملك مالك.

وقال[2]: كل العافية في الذكر والطاعة، وكل البلاء في الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء في الإنابة والتوبة. اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ[3] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[4].

قال سيّد قطب[5]: وقد مضت مشيئة الله في خلقة الإنسان ذٰلك، واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٨٥).

(٢) «التذكرة» (ص ٥٣).

(٣) أي: يتعامى ويتغافل ويعرض. «تفسير ابن كثير» (٤ / ١٢٨).

(٤) الزخرف: ٣٦.

(٥) «في ظلال القرآن» (٧ / ٣٣٣).

فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ويزين له السوء، وهٰذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هٰذه المشيئة الكلية الثابتة؛ التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب؛ كما قضاه الله في علمه.

وقال ابن الجوزي[1] : العذاب مصبوب على أهل سخط الله، والسخط حالٌّ على أهل معصية الله، والمعصية لازمة لمن الشيطان له ملازم، وإنما يلازم الشيطانُ مَن عَشِيَ عن ذكر الله؛ فاحذر الغفلة عن ذكر الله؛ فإنها أصل كل بلية، وجالبة كل رزيّة.

فصل

وقد حذر المبعوث رحمة للعالمين ﷺ من الغفلة تحذيراً شديداً في أحاديث كثيرة جداً، منها ما في «سنن أبي داود»[2] وغيره[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ؛ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً».

قال الألباني[4]: هٰذا التشبيه يقتضي تقبيح عملهم كل التقبيح، وما يكون ذٰلك ـ إن شاء الله تعالى ـ إلا فيما هو حرام ظاهر التحريم، والله أعلم. اهـ.

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٦٦).

(٢) (رقم ٤٨٥٥).

(٣) منهم الحاكم (١ / ٤٩٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» الحديث (رقم ٧٧).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١ / ١١٩).

وعن أبي هريرة أيضاً من طريق أخرى بلفظ:

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً فَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ؛ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ[1]، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مَشَى طَرِيقاً فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِ تِرَةٌ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ؛ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِ تِرَةٌ»[2].

ومن طريق ثالثة بلفظ:

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ؛ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»[3].

قال الألباني[4]: لقد دل هٰذا الحديث الشريف وما في معناه على وجوب ذكر الله سبحانه، وكذا الصلاة على النبي ﷺ في كل مجلس.

ثم قال: فعلى كل مسلم أن يتنبه لذٰلك، ولا يغفل عن ذكر الله عز وجل والصلاة على نبيه ﷺ في كل مجلس يقعده، وإلا كان عليه ترة وحسرة يوم القيامة.

وقال المناوي[5]: فيتأكد ذكر الله والصلاة على رسوله عند إرادة

---

(١) أي: تبعة وحسرة وندماً.

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٣٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم ١٧٩ ـ باب ذكر الله عز وجل في الطريق)، والحاكم (١ / ٥٥٠)، وغيرهم، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١ / ٤٩٦)، وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٤).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١ / ١١٩).

(٥) «فيض القدير» (٥ / ٤٣٩).

القيام من المجلس، وتحصل السنة في الذكر والصلاة بأي لفظ كان، لٰكن الأكمل في الذكر: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[1]، وفي الصلاة على النبي ﷺ ما في التشهد. اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهَا؛ إِلَّا حَسِرَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وعن أبي موسى رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[3].

قال ابن القيم[4]: الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل؛ فتح باب الحصن، فولجه العدو[5]، فيعسر عليه ويصعب إخراجه.

وقال[6]: إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك

---

(١) وهو مذكور في آخر ورقة من هٰذا الكتاب، ومخرج بأزيد من هٰذا اللفظ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥ / ٣٦١ ـ ٣٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (١ / ٣٩٢ / رقم ٥١١)، وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع» (برقم ٥٥٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٢٠٨ ـ «فتح»)، ومسلم (رقم ٧٧٩)، وهٰذا لفظه، وأخرجه غيرهما.

(٤) «الفوائد» (ص ٢٤٦).

(٥) يعني: الشيطان.

(٦) «الفوائد» (ص ١٢٩).

وأنفاسك أبداً، ومن كل ما سواه بد، ولا بد لك منه.

وقال[١]: قلوب الغافلين معدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة.

وقال[٢]: القلب الغافل مأوى الشيطان؛ فإنه وسواس خناس، قد التقم قلب الغافل، يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله؛ انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله؛ فهو دائماً بين الوسوسة والخنس.

وفي «التذكرة» لابن الجوزي[٣]: إن المعصية إلى الغافل أسرع من انحدار الصخرة إلى المكان السافل.

وفيها[٤]:

يا حَسْرَةَ الغَافِلِ واللاَّهِي لا كَانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

اطْرَحِ الدُّنْيَا وأَشْغَالَهَا لا كَانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

ولا تَقُلْ أَهْلِي ولا عَشِيرَتي لا كَانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

ولا تَقُلْ وَلَدِي ولا زَوْجَتِي لا كَانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

ولا تَقُلْ دَارِي ولا ضَيْعَتِي لا كَانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

ولا تَقُلْ أَرْضِي ولا مَوْلِدِي لا كان ما يُلْهِي عَنِ اللهِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢ / ٢١٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ١١٢).

(٣) (ص ٣٦).

(٤) (ص ٥١).

ولا تَقُـلْ طَبْعِـي ولا عَـادَتِـي لا كَـانَ مـا يُلْهِـي عَـنِ اللـهِ
ولا تَقُـلْ مَـالِـي ولا قِنْيَتِـي لا كَـانَ مـا يُلْهِـي عَـنِ اللـهِ
اللـهُ يُغْنِـي عَـنْ سِـوَاهُ وسِـوَاهُ لا يُغْنِـي عَـنِ اللـهِ

وفيها[1]: لا تقدر على التخلص من بلوى المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة، ولا تتخلص من الغفلة إلا بتضمير البطن، وتفريغ القلب، ومواصلة الذكر. اهـ.

وقوله: (تضمير البطن)؛ يعني: تجويعه حتى يضمُر؛ أي: ينضم ويخف لحمه. واعلم أن الجوع غير محمود إلا ما كان منه شرعياً، ونتج عن الاكتفاء بلقيمات يقمن الصلب، أو عن ترك إعطاء البطن أكثر من الثلث، أو عن الصوم، أو نتج عن الإيثار ونحوه.

وقوله: (وتفريغ القلب)؛ يعني: من الاعتقادات الفاسدة، والشبهات الزائفة، وسائر الأفكار الشيطانية، والأمراض النفسانية، ولا ينفع هٰذا التفريغ إلا بضده من مَلْء القلب بالاعتقادات السلفية الإيمانية، والعلوم الشرعية المحمّدية، والأفكار الدينية، المُوْرِثة لرفيع المقامات والأحوال، الهادية لأحسن الأخلاق والأعمال.

* * *

---

(١) (ص ٥٤).

الفصل الثاني

في الذكر الكثير

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1].

قال ابن كثير[2]: يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن؛ مما لهم في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب.

وقال البغوي[3]: قال ابن عباس: لم يفرض الله تعالى فريضة على عباده إلا جعل لها حداً معلوماً، وعذر أهلها في حال العذر غير الذكر؛ فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله؛ فلذلك أمرهم به في كل الأحوال، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[4]، وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾؛ أي:

---

(١) الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٩٤).

(٣) «معالم التنزيل» (٤ / ٤٧٢).

(٤) النساء: ١٠٣.

بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي الصحة والسقم، وفي السر والعلانية.

قال البيضاوي(١): يغلب الأوقات، ويعم الأنواع، بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد.

وقال المراغي(٢): ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾؛ أي: ونزهوه عما لا يليق به طرفي النهار؛ لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم، وهو يعد كأنه حياة جديدة بعد موت، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومي؛ فيكون الذكر شكراً له على توفيقه لأداء الأعمال والقيام بالسعي على الأرزاق، فلم يبق إلا السعي إلى ما يقربه من ربه بالعمل للآخرة.

ثم ذكر السبب في هٰذا الذكر والتسبيح، فقال: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾؛ أي: إن ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير، وتسبحونه بكرة وأصيلاً؛ هو الذي يرحمكم ويثني عليكم في الملإ من عباده، وتستغفر لكم ملائكته، وفي هٰذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لا يخفى.

قال ابن كثير(٣): هٰذا تهييج إلى الذكر، أي أنه سبحانه يذكركم؛ فاذكروه أنتم.

وقال أبو السعود(٤): صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها،

---

(١) «أنوار التنزيل» (٢ / ٢٤٨).

(٢) «تفسيره» (٢٢ / ١٨).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٩٥).

(٤) «إرشاد العقل السليم» (٤ / ٣٢٤).

وغناه عن العالمين؛ مما يوجب عليهم المداومة على ما يوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه.

وقال ابن القيم(١): الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته؛ فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

ثم قال: فهٰذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله!

وقال ابن سعدي في تفسير الآيات(٢): يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً؛ من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذٰلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذٰلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن ذٰلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداعٍ إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره، لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٩١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٤ / ١٥٧ و١٥٨).

وكان بالمؤمنين رحيماً﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله. اهـ.

وعن معاذ رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله! أوصني. قال:

«اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي المَوْتَى، وَاذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَعِنْدَ كُلِّ شَجَرٍ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً؛ فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً، السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالعَلَانِيَةُ بِالعَلَانِيَةِ»[1].

وقال الشاعر[2]:

اذْكُـرِ اللـهَ بُكْـرَةً وأصيـلاً ... وتَبَتَّـلْ لِـذِكْـرِهِ تَبْتِيـلا
اذْكُـرِ اللـهَ ذِكْـرَ صَـبٍّ مَشوقٍ ... واجْعَلِ الذِّكْرَ للوِصالِ سَبيلا
الْـزَمِ الـذِّكْـرَ واتَّخِـذْهُ تَجِـدِ ... الـذِّكْـرَ بـالـوِصـالِ كَفيـلا

وفي «جامع العلوم والحكم»[3]: نام بعضهم عند إبراهيم بن أدهم، قال: فكنت كلما استيقظت من الليل وجدته يذكر الله، فأغتم، ثم أُعَزِّي نفسي بهذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠ / ١٧٥ / رقم ٣٧٤). وحسنه الألباني لشواهده في «الصحيحة» برقم (١٤٧٥).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ١١٧).

(٣) (ص ٤١٨ و٤١٩).

(٤) المائدة: ٥٤، والحديد: ٢١، والجمعة: ٤.

وكان أبو مسلم الخولاني كثير الذكر، فرآه بعض الناس فأنكر حاله، فقال لأصحابه: أمجنون صاحبكم؟! فسمعه أبو مسلم، فقال: لا يا أخي، ولٰكن هٰذا دواء الجنون.

فصل

وأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بعد انقضاء صلاة الجمعة بذكره ذكراً كثيراً؛ من تسبيح وتهليل ونحوه، وذكر عظمته وجلاله واطّلاعه ومراقبته، وسائر أنواع الذكر بحسب الحال؛ فقال سبحانه:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: أي: حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله كثيراً، ولا تشغلنكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة.

وقال القاسمي[3]: أي: اذكروا أمره ونهيه وشرعه دائماً، لتصير ملكةً لكم تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم، وتفلحوا بسعادة الدارين.

وقال ابن سعدي[4]: ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته؛ أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله

---

(١) الجمعة: ١٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٣٦٧).

(٣) «محاسن التأويل» (١٦ / ١٦٢).

(٤) «تيسير اللطيف المنان» (ص ٥٣).

كثيراً لعلكم تفلحون﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم، وفي تصرفاتكم وأحوالكم كلها؛ فإن ذكر الله طريق الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ومن المناسب في هٰذا أن يجعل المعاملة الحسنة والإحسان إلى الخلق نصب عينيه، فإن هٰذا من ذكر الله؛ فكل ما قرب إلى الله فإنه من ذكره، وكل أمر يحتسبه العبد فإنه من ذكره، فإذا نصح في معاملته وتَرَكَ الغش؛ تقرب في هٰذه المعاملة إلى الله لأن الله يحبها، ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة، وكلما سامح أحداً أو حاباه في ثمن أو مثمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه؛ فإنه من الإحسان والفضل، وهو من ذكر الله. اهـ.

وكذا أمرهم الله تعالى بالذكر الكثير بعد قضاء مناسك الحج؛ فقال سبحانه:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1].

قال القاسمي[2]: أي: فأكثروا ذكر الله، وابذلوا جهدكم في الثناء عليه وشرح آلائه ونعمائه، كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم بعد قضاء مناسككم.

وقال ابن القيم[3]: فيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة؛ لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين؛ فأي لحظة خلا فيها العبد

---

(١) البقرة: ٢٠٠.

(٢) «محاسن التأويل» (٣ / ١٦١).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٤٩).

عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله. اهـ.

وحث عز وجل عباده المؤمنين المجاهدين على الإكثار من ذكره عند لقاء العدو؛ فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

قال ابن القيم[2]: فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ليكونوا على رجاء من الفلاح.

وقال ابن سعدي[3]: فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

وقال القاسمي[4]: في الآية إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون هماً، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حالٍ من الأحوال.

فصل

وأمر الله تعالى نبيه زكريا عليه الصلاة والسلام ـ بعد أن ذكر آيته ـ بالذكر الكثير والتسبيح، فقال له:

---

(١) الأنفال: ٤٥.

(٢) «الوابل» (ص ٤٩).

(٣) «التيسير» (٢ / ٢٠٦).

(٤) «محاسن التأويل» (٨ / ٧١).

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[1].

قال السيوطي[2]: فيه الحث على الذكر، وهو من شعب الإيمان.

قال محمد بن كعب: لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا؛ لأنه منعه من الكلام.

وقال سبحانه على لسان نبيه موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾[3].

قال ابن سعدي[4]: عَلِم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيَكْثُر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

وقال الله تعالى له ولأخيه عليهما الصلاة والسلام عندما أمرهما بالذهاب إلى فرعون:

﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾[5].

قال ابن سعدي[6]: أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري

---

(١) آل عمران: ٤١.

(٢) «الإكليل» (ص ٦٩).

(٣) طه: ٢٩ ـ ٣٤.

(٤) «التيسير» (٣ / ٢٣٠).

(٥) طه: ٤٢.

(٦) «التيسير» (٣ / ٢٣٣).

بالاستمرار عليه، والزماه كما وَعَدتما بذلك: ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾؛ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور يسهلها ويخفف حملها.

وذم الحقُّ سبحانه الشعراء، ثم قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

قال القاسمي[٢]: أي: في شعرهم، بأن كان غالبه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة.

وقال ابن كثير[٣]: قيل: معناه: ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق.

فصل

وجعل الله سبحانه الذكر الكثير من جملة الأوصاف العظيمة الجليلة التي وعد عليها بالمغفرة والأجر العظيم؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) «محاسن التأويل» (١٣ / ٥٢).

(٣) «تفسيره» (٣ / ٣٥٥).

(٤) الأحزاب: ٣٥.

وخص الله عز وجل الاعتبار ببديع مخلوقاته وعظيم صنعها ولطيف تقلب ليلها ونهارها بأولي الألباب، أهل الذكر الكثير والفكر المنير؛ فقال جل وعلا:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

قال محمد رشيد رضا(٢): والذكر في الآية على عمومه لا يُخَص بالصلاة، والمراد به ذكر القلوب، وهو ذكر الله تعالى في النفس، وتذكر حِكَمه وفضله ونعمه في حال القيام والقعود والاضطجاع، وهٰذه الحالات الثلاث التي لا يخلو العبد عنها، والآيات الإلٰهية لا تظهر من السماوات والأرض إلا لأهل الذكر.

ثم إن ذكر الله لا يكفي في الاهتداء إلى الآيات، ولٰكن يشترط مع الذكر التفكر فيها؛ فلا بد من الجمع بين الذكر والفكر، فقد يذكر المؤمن ربه ولا يتفكر في بديع صنعه وأسرار خليقته، ولذٰلك قال: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾.

قال: أقول: قد يتفكر المرء في عجائب السماوات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان والإبداع والمنافع، الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم السابغة والقدرة التامة وهو غافل؛ فالذين يشتغلون بعلم ما في السماوات والأرض وهم غافلون عن خالقهما،

---

(١) آل عمران: ١٩٠ و١٩١.

(٢) «مختصر تفسير المنار» (١ / ٤٦٠ و٤٦١).

ذاهلون عن ذكره؛ يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولٰكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل، يعني أن الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر؛ فيا طوبى لمن جمع بين الأمرين، واستمتع بهاتين اللذتين؛ فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة. اهـ.

وقال الغزالي(١): اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً بالله سبحانه، وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر في أسمائه وصفاته وأفعاله.

ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها، والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة، وكل ذٰلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار. اهـ. بتصرف يسير.

وفي «التذكرة في الوعظ»(٢):

وَاذْكُروا اللـهَ على كُلِّ حالٍ ... وانظُـروا كَيْـفَ تَـذْكُـرونـا
لا يَتِمُّ الـذِّكْـرُ حَتَّـى تكـونـوا ... كُلَّ مَا في وُسْعِكُمْ تَبْذُلونـا
فأَذيبوا الأنفُسَ في طلَبِ العَيْشِ ... بِـدارٍ لا تَـرَوْنَ فيهـا المَنونـا
والْـزَمـوا ذِكْـرَ الجَليـلِ فَبِـالـذِّ ... كْـرِ إلَيْـهِ وَصَـلَ الـواصلـونـا

---

(١) «الإحياء» (١ / ٣٣٠).
(٢) (ص ١٢١).

وفيها[1]:

اعْبُـدوا اللـهَ ركعـاً وسُجـوداً وقِيـامـاً طَـوْراً وطَـوْراً قُعـوداً

فصل

وبين الكريم الرحمٰن سبحانه وتعالى أن شرف الأسوة بالنبي ﷺ، الجالبة لخير الدنيا والآخرة، الموصلة لرضا الله تعالى وكرامته؛ إنما يسلكها ويوفق إليها من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً؛ فقال سبحانه:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

فصل

والذكر الكثير علامة صادقة على محبة الله تعالى؛ فإن الصادق في محبته لشيء لا يمكن أن يُرى غافلاً عن ذكره، وكلما ازداد محبة له ازداد ذكراً له ووصفاً لمحامده ومحاسنه، وهٰذا معلوم لا ينكره عاقل.

قال ابن رجب[3]: قال إبراهيم الجنيد: كان يقال: من علامة المحب لله دوام الذكر بالقلب واللسان، وقلما ولع المرء بذكر الله إلا أفاد منه حب الله.

وقال ذو النون: من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر؛ قذف الله في قلبه

---

(١) (ص ١٣٧).

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٤١٧).

نور الاشتياق إليه.

وقال[1]: المحب اسم محبوبه لا يغيب عن قلبه؛ فلو كلف أن ينسى ذكره لما قدر، ولو كُلِّف أن يكف عن ذكره بلسانه لما صبر.

وقال: كلما قويت المعرفة صار الذكر يجري على لسان الذاكر من غير كُلفة.

وقال[2]: إذا قوي حال المحب ومعرفته لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل؛ فهو بين الخلق بجسمه وقلبه معلق بالمحل الأعلى، كما قال عليٌّ في وصفهم: صحبوا الدنيا بأجسادٍ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى.

وفي هٰذا المعنى قيل:

جِسْمي مَعِي غَيْرَ أنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ ... فَالجِسْمُ في غُرْبَةٍ والرُّوحُ في وَطَنِ

وقال غيره:

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفُؤادِ مُحَدِّثي ... وأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أرادَ جُلوسي

فَالجِسْمُ مِنِّي للجَليسِ مُؤانِسٌ ... وحَبيبُ قَلْبي في الفؤادِ أنيسي

أي: يأنس قلبه بمحبته وإجلاله وذكره، والشغل به عمن سواه لا غير.

قال ابن رجب[3]: قال فتح الموصلي: المحب لا يجد مع حب

---

(١) «جامع العلوم» (ص ٤١٨).

(٢) «جامع العلوم» (ص ٤٢٠).

(٣) «جامع العلوم» (ص ٣٤٢).

الله للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال بعضهم: المحب لله طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً.

وقال غيره: إذا سئم البطّالون من بطالتهم؛ فلا يسأم محبوبك من مناجاتك وذكرك.

وقال ابن الجوزي[1]: من أحب شيئاً؛ أكثر ذكره، ومن أجلّ أمراً؛ أعظم قدره، ولا حبيب أحب من الله إلى أهل ولايته، ولا جليل أجل من الله عند أهل معرفته؛ فاذكروا الله ذكر المحبين، وأجلّوه إجلال العارفين.

فصل

والذاكرون الله كثيراً والذاكرات هم أهل السبق؛ كما في «صحيح مسلم»[2] و «مسند أحمد»[3]: عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جُمْدَانُ، فقال:

«سِيرُوا، هٰذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:

«الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتُ».

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ١١٩).

(٢) (رقم ٢٦٧٦).

(٣) (٢ / ٤١١).

وفي طريق أخرى أخرجها أحمد[١] والحاكم[٢] وغيرهما:

«الَّذِينَ يُهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وقوله ﷺ: (المُفَرِّدُون)؛ أي: المنفردون.

قال ابن الأثير: يقال: فَرَدَ برأيه، وأفْرَد، وفَرَّد، واسْتَفْرَد؛ بمعنى: انفَرَدَ به.

وقوله ﷺ: (يُهْتَرون)؛ أي: يولعون، قال ابن الأثير: أُهْتِرَ فلان بكذا واستهتر؛ فهو مهتر به، ومستهتر؛ أي: مولع به لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره.

قال ابن القيم[٣]: عمّال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القَتَرَةَ والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف؛ رآهم الناس وقد حازوا قصب السَبق. اهـ.

والذكر الكثير سبب لاستجابة الدعاء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«ثَلاثَةٌ لاَ يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ: الذَّاكِرُ اللهَ كَثِيراً، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، والإِمَامُ المُقْسِطُ»[٤].

---

(١) «المسند» (٢ / ٣٢٣).

(٢) «المستدرك» (١ / ٤٩٥ ـ ٤٩٦)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٣٠٥)، لكن على شرط مسلم وحده.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٩٨ ـ ٩٩).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١٢١١).

فصل

في تعريف الذكر الكثير

قال ابن الصلاح(1): إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة، في ليل العبد ونهاره، وهي مبينة في كتاب «عمل اليوم والليلة»؛ كان من الذاكرين الله تبارك وتعالى كثيراً.

وقال ابن سعدي(2): وأقل ذٰلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

وقال الجزري(3): والمواظب على الأذكار المأثورة صباحاً ومساءً وفي الأحوال المختلفة هو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وقال بعضهم: المؤمن يذكر الله بكله؛ لأنه يذكر الله بقلبه، فتسكن جميع جوارحه إلى ذكره، فلا يبقى منه عضو إلا وهو ذاكر في المعنى، وإن امتدت يده إلى شيء ذكر الله؛ فكف يده عمّا نهى الله تعالى عنه، وإذا سعت قدمه إلى شيء ذكر الله؛ فوقف عن السعي إلا فيما يرضي الله، وإذا طمحت عينه إلى شيء ذكر الله؛ فغض بصره عن محارم الله، وكذٰلك سمعه ولسانه وجوارحه مصونة بمراقبة الله تعالى، ومراعاة أمر الله، والحياء من نظر الله تعالى؛ فهذا هو الذكر الكثير، والذكر القليل ذكر المنافقين، يذكرون الله بألسنتهم رئاء الناس وليس

---

(1) «فتاوى ومسائل ابن الصلاح» (١ / ١٥٠).

(2) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٤ / ١٥٧).

(3) «عدة الحصن الحصين» (ص ١٧).

في قلوبهم من الذكر شيء، قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، والذكر المطلوب ذكر القلب، وإنما اللسان طريق إليه، فمن لازم ذكر الله تعالى بلسانه مخلصاً لله تعالى؛ وصلت بركة الذكر إلى قلبه، فعاش قلبه بذكر الله تعالى، فعند ذٰلك يكون ذكره كثيراً. اهـ.

فصل

ويُلحق بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات من قام من الليل وأيقظ زوجه وصليا معاً ركعتين؛ كما روى أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما؛ قالا: قال رسول الله ﷺ:

«مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً؛ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ»[2].

قال الشاعر[3]:

يا حُسْنَهُمْ واللَّيْلُ قَدْ جَنَّهُمْ ... ونورُهُمْ يَفُوقُ نورَ الأنْجُمِ
تَرَنَّموا بالذِّكْرِ في لَيْلِهِمْ ... فَعَيْشُهُمْ قَدْ طابَ بالتَّرَنُّمِ
قُلوبُهُمْ للذِّكْرِ قَدْ تَفَرَّغَتْ ... دُموعُهُمْ كَلُؤْلُؤٍ مُنْتَظِمِ

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٥١)، وابن ماجه (١٣٣٥)، والحاكم (١ / ٣١٦)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن حبان (٤ / ١١٩ ـ «إحسان») وغيره، وصحح إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (١ / ٣٩٠).

(٣) «لطائف المعارف» (ص ١٨٥).

أَسْحَارُهُمْ بِهِمْ لَهُمْ قَدْ أَشْرَقَتْ وخُلَـعُ الغُفْـرانِ خَيْـرُ القَسَـمِ
وَيْحَـكِ يـا نَفْـسُ ألاَ تَيَقُّـظِ يَنْفَـعُ قَبْـلَ أنْ تَـزِلَّ قَـدَمـي
مَضَى الزَّمانُ في تَوانٍ وهوى فاسْتَدْرِكي ما قَدْ بَقِي واغْتَنِمي

فصل

وأكمل الناس ذكراً لله عز وجل هو سيد الخلق محمد ﷺ؛ فهو أعلمهم بأسماء من يذكر سبحانه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه، وما يستحق جل وعلا من إجلال وتعظيم وثناء وتمجيد.

ولشدة علمه ﷺ بربه ـ تقدست أسماؤه ـ وتمام ذكره له؛ قال:

«لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

وكان ﷺ لا يفتر عن ذكر الله طرفة عين، يذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه بجميع أنواع الذكر؛ فكل أحواله ﷺ كانت ذكراً لله عز وجل: إنْ نطق فبذكره، وإن سكت فالقلب ذاكر لله تعالى؛ فلا تخلو لحظة من حياته عن ذكر إلٰهه جل وعلا.

وفي «صحيح مسلم»(٢) و«السنن الأربعة»(٣)؛ إلا «النسائي»: عن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وغيرُه، من حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللَّهُمَّ! أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

(٢) (رقم ٣٧٣).

(٣) «سنن أبي داود» (رقم ١٨)، و«الترمذي» (٣٣٨٤)، و«ابن ماجه» (رقم ٣٠٢). =

عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه.

قال المناوي[1]: (كل أحيانه)؛ أي: أوقاته متطهراً ومحدِثاً وجنباً وقائماً وقاعداً ومضطجعاً وماشياً وراكباً وظاعناً ومقيماً؛ فكأن ذكر الله يجري مع أنفاسه.

قال الفيروزآبادي[2]: يعني: في جميع أوقاته، وكان لا يعوقه شيء عن ذكر الحق سبحانه؛ لأن جميع كلامه كان في ذكر الله، والأمر والنهي والتشريع للأمة؛ وكله ذكر، وبيان الأسماء والصفات وأحكام الله تعالى والوعد والوعيد؛ وكل هٰذا ذكر، والثناء والدعاء والتمجيد والتحميد والتسبيح والسؤال والترهيب والترغيب؛ بالكلية ذكر الحق سبحانه، وحال سكوته أيضاً كان قلبه وضميره في الذكر؛ فتكون أنفاسه مشتملة على الذكر، وحال قيامه وقعوده ورقوده وذهابه وإيابه وجميع حالاته لا ينفك عن ذكر الله.

وكلام الفيروزآبادي هٰذا قد نقله عن شيخه ابن القيم وتصرف فيه؛ فإنه قال في «زاد المعاد»[3]: كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده

= والحديث أخرجه أحمد أيضاً (٦ / ٧٠ و١٥٣) وغيره.

(١) «فيض القدير» (٥ / ٢١٤).

(٢) «سفر السعادة» (ص ١٥٢).

(٣) (٢ / ٣٦٥).

وتسبيحه ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه له، وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه؛ فكان ذاكراً لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه؛ قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته.

وقال في «الوابل»(١) بعد أن ذكر قول عائشة رضي الله عنها: ولم تستثن حالة من حالة، وهٰذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته وجنابته، وأما في حال التخلي؛ فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولٰكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر، وأنه لا يُخل به عند قضاء الحاجة وبعدها، وكذٰلك شرع للأمة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم: «بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»(٢)، وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل؛ فلا ريب أنه لا يكره بالقلب، لأنه لا بد لقلبه من ذكر، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شيء إليه، فلو كلف القلب نسيانه؛ لكان تكليفه بالمحال، كما قال القائل:

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فأما الذكر باللسان على هٰذه الحالة؛ فليس مما شرع لنا، ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ، ولا نقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) (ص ٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في ستة مواضع، أولها (١ / ٢٤٢ ـ «فتح») وغيرُه، عن ابن عباس يبلغُ النبي ﷺ؛ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقَضَى بَيْنَهُمَا وَلَدٌ؛ لَمْ يَضُرَّهُ».

وقال عبد الله بن أبي الهذيل: إن الله تعالى ليحب أن يذكر في السوق، ويحب أن يذكر على كل حال؛ إلا على الخلاء.

ويكفي في هٰذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هٰذه الحالة، وهي من أجل الذكر؛ فذِكْر كل حال بحسب ما يليق بها، واللائق بهٰذه الحال التقنع بثوب الحياء من الله تعالى وإجلاله، وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هٰذا العدو المؤذي له، الذي لو بقي فيه لقتله؛ فالنعمة في تيسير خروجه كالنعمة في التغذي به. انتهى كلام ابن القيم.

فصل

وكما أن الذكر الكثير من صفات أولياء الله تعالى الأبرار والمقربين، المقتدين بهدي سيد المرسلين؛ فخلافه ـ وهو عدم الذكر بالكلية ـ من صفات أعداء الله الكافرين، وقِلته من صفات إخوانهم المنافقين، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

قال الشوكاني(٢): ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾؛ أي: غلب عليهم واستعلى واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء: حواه وأحاط به، وقيل: قوي عليهم، وقيل: جمّعهم، يقال: أَحْوَذ الشيء؛ أي: جمّعه وضم بعضه إلى بعض، والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمّعهم فقد قوي

(١) المجادلة: ١٩.

(٢) «فتح القدير» (٥ / ١٩٣).

عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم.

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: ﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾؛ لامتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلىء قلبه بمحبة الله وعظمته.

وقال ابن القيم[3]: كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل، واللهُ عز وجل أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل. اهـ.

وقال الله سبحانه في آخر سورة «المنافقون» محذراً من الاشتغال واللهو عن ذكره بزينة الحياة الدنيا كما هو حال المنافقين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾.

***

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) «التيسير» (١ / ٤٣٠).

(٣) انظر: «الوابل الصيب» (١٠٢ و١٠٣).

الباب الثالث

في فضل ذكر الله تعالى

فضل الذكر

اعلم أن ذكر الله عز وجل خير الأعمال، وأزكاها، وأفضلها عند الله تعالى؛ كما أخبر الرسول ﷺ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[1].

قال الحافظ في «الفتح»[2] بعد أن ذكر هٰذا الحديث: وقد أشرت إليه مستشكلاً في أوائل الجهاد[3] مع ما ورد في فضل المجاهد أنه كالصائم لا يفطر، وكالقائم لا يفتر[4]، وغير ذٰلك؛ مما يدل على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، والحاكم (١ / ٤٩٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.
وكذا صححه الألباني في «تخريج المشكاة» برقم (٢٢٦٩).

(٢) (١١ / ٢١٠).

(٣) «الفتح» (٦ / ٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦ / ٤ ـ «فتح»)، ومسلم (١٨٧٨)، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أفضليته على غيره من الأعمال الصالحة، وطريق الجمع ـ والله أعلم ـ أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب؛ بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذٰلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذٰلك، وإن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أن جمع ذٰلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذٰلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله الكفار مثلاً؛ فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى.

وأجاب القاضي أبو بكر بن العربي بأنه: ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه. اهـ.

وقال ابن القيم[1]: الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى؛ فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون.

وقال[2]: أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل؛ فأفضل الصوّام أكثرهم ذكراً لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وأفضل الحاجّ أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وهٰكذا سائر الأحوال.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٩).

(٢) «الوابل» (ص ٩٥).

قال ابن جزي في «تفسيره»[(١)]: اعلم أن الذكر أفضل الأعمال على الجملة، وإن ورد في بعض الأحاديث تفضيل غيره من الأعمال؛ كالصلاة وغيرها؛ فإن ذلك لما فيها من معنى الذكر والحضور مع الله تعالى.

وفي «الحلية»[(٢)] لأبي نعيم: عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه؛ قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال:

«طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ». وقال الآخر: أي العمل خير؟ قال: «أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

وفي الحديث: «مَا مِنْ يَوْمٍ وَلاَ لَيْلَةٍ إِلاَّ للهِ مَنٌّ يَمُنُّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ صَدَقَةً، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ»[(٣)].

(فائدة): قال في «موعظة المؤمنين»[(٤)]: إن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟

فاعلم أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ؛ فهو قليل الجدوى، وحضور القلب في

---

(١) (ص ٣٨).

(٢) (٦ / ١١١ ـ ١١٢). وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤ / ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٣) بعض حديث، أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني. انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١ / ٢٧٩).

(٤) (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) بتصرف.

لحظة في الذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات، بل به تشرف سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية.

وقال شيخ الإسلام مجيباً من سأله عن أفضل الأعمال بعد الفرائض[1]: وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم؛ فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة ـ وذكر أدلة من السنة، ثم قال ـ: والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

قال شيخ الإسلام[3]: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، وما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

قلت: ويكفي في بيان أفضلية الذكر ورفعته على سائر الأعمال: ما

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٦٦٠).

(٢) العنكبوت: ٤٥.

(٣) انظر: «الوابل الصيب» (ص ٩٥).

رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَعَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»(١).

فجعل أول كلامه إذا استيقظ من نومه معافى؛ أن يحمد الله تعالى أن أرسل روحه وأذن له بذكره؛ فأي فضل لعمل من الأعمال أعظم من هذا؟!

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه سبب لذكر الله عز وجل للذاكر؛ كما قال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(٢).

فأي فضل أعظم من هذا، وأي جود أوسع منه؟! الله عز وجل العظيم الكبير المتعال فوق سبع سماواته يذكر عبده الصغير إذا ذكره؛ فيا ألله ما أعظم كرمه وما أجل عطاياه! ويا حسرة الغافل عن ذكر مولاه!

وفي معنى الآية قال المراغي(٣): أي: اذكروني بالطاعة بألسنتكم بالحمد والتسبيح وقراءة كتابي الذي أنزلته على عبدي، وبقلوبكم بالفكر في الأدلة التي نصبتها في الكون لتكون علامة على عظمتي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠١)، وابن السني (رقم ٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن». وجوّد إسناده الألباني في «تخريج الكلم» تحت الحديث (رقم ٣٤).

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) «تفسيره» (٢ / ٢٠).

وبرهاناً على قدرتي ووحدانيتي، وبجوارحكم بالقيام بما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه. اهـ.

وقال ابن سعدي[1]: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾؛ فأمر الله تعالى بذكره ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره.

وقال: الذكر هو رأس الشكر؛ فلهٰذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً؛ فقال: ﴿**واشكروا لي**﴾؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهٰذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيه. فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة.

وقال[2]: ينبغي للعبد كلما أحدث الله له نعمة أحدث لذٰلك شكراً، وإن أفضل أنواع الشكر: الإكثار من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه.

وقال الشاعر[3]:

أفيضوا بِنا في ذِكْرِ المُنْعِمِ فَمَا ... مَـزيـدُ الخَيْـرِ إلاَّ فـي شُكْـرِهِ
وأعيدوا عَلَيْنا ذِكْرَ اسْمِهِ فَمَا ... لَـذَّةُ العَيْـشِ إلاَّ فـي ذِكْـرِهِ

وقال الإلبيري لابنه وهو يعظه[4]:

---

(١) «تفسيره» (١ / ١١٦).

(٢) «المواهب الربانية» (ص ٥٨).

(٣) «التذكرة في الوعظ» (ص ١٩٢).

(٤) «ديوانه» (ص ٢٩).

وأَكْثِـرْ ذِكْـرَهُ فـي الأرْضِ دَأْبـاً لِتُـذْكَـرَ فـي السَّمـاءِ إذا ذَكَـرْتـا
ولا تَقُـلِ الصِّبـا فيـهِ مَجَـالٌ وَفكِّـرْ كَـمْ صغيـرٍ قَـدْ دَفَنْتـا

وقال ابن القيم[1]: وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذٰلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذٰلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذكره الحقيقي يستلزم ذٰلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر؛ فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً، وهٰذان الأمران هما جماع الدين؛ فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهٰذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتاب، وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما.

وقال غيره: اذكر الله تعالى حتى يذكرك، اذكره حتى يحطَّ الذكر عنك أوزارك، تبقى خالياً عن وزر، تصير طاعة بلا معصية؛ فحينئذ يذكرك فيمن يذكر، فتشتغل به عن خلقه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ

---

(١) «الفوائد» (ص ١٦٦).

ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسي[1]، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللهُ تَعَالَى: عَبْدِي إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِياً ذَكَرْتُكَ خَالِياً، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَأَكْثَرَ»[3].

---

(١) أي: بالثناء عليه والثواب؛ فإن ذَكَرَ العبدُ ربَّه بالثناء في نفسه ذكره الله عز وجل مثنياً عليه في نفسه، وإن ذكره بأي طاعة أخرى ذكره بالثواب بحسب تلك الطاعة. وكذا إن ذكره في ملإٍ ذكره الله تعالى بما يُمدح به ويعظُم به شأنه ويرتفع به مكانه، وذلك على مسمع من الملائكة، وذكره بالثواب أيضاً.

وقد بحثت طويلاً في معنى «ذكرته في نفسي»، ومعنى قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾، ولم أجد من حرره هكذا، بل فسروا ذكر الله للعبد بالثواب لا غير، والله أعلم بمراده.

وانظر: «تحفة الذاكـرين» (ص ٨)، و«شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» (١ / ٢٦٧) للغنيمان.

ثم وجدت في «التفسير الكبير» للرازي (٢ / ١٥٩) ما يحسن ذكره، قال: «أما قوله: ﴿أذكركم﴾؛ فلا بد من حمله على ما يليق بالموضع، والذي له تعلق بذلك: الثواب والمدح، وإظهار الرضا والإكرام، وإيجاب المنزلة، وكل ذلك داخل تحت قوله: ﴿أذكركم﴾».

وانظر: «جامع البيان» للطبري (٢ / ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣ / ٣٨٤ و٤٦٦ و٥١٢ ـ «فتح»)، ومسلم (٢٦٧٥) في كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، كلاهما من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١ / ٤٠٦ / رقم ٥٥١) وغيره، وهو في «صحيح =

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه يورث الذاكر المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل؛ فليلهج بذكره، فإن الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم؛ فالذكر باب المحبة، وشعارها الأعظم وصراطها الأقوم. قاله ابن القيم[1].

وأفاد في «المدارج»[2]: أن دوام ذكر الله تعالى على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال من أسباب محبة الله تعالى، وبقدر نصيب العبد من هٰذا الذكر يكون نصيبه من المحبة. اهـ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»[3].

والمحب الصادق لربه عز وجل لا يفتر عن ذكره أبداً، ويظهر ذٰلك جلياً في مواطن:

أولها: عند أخذ مضجعه، وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل،

= الجامع» برقم (٤٢٠٠).

(١) «الوابل الصيب» (ص ٥٢).

(٢) (٣ / ١٧).

(٣) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (١ / ٢١٢ / رقم ١٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧ / ٢٠٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢ / ٤٠٨ / رقم ٢٢١٩)، وغيرهم، ولم أجده في فهرس «الشعب» للأسف! وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٣٤٢).

واجتماع قلبه على ما يحبه؛ فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

وثانيها: عند انتباهه من النوم؛ فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه.

وثالثها: عند الشدائد والأهوال؛ فإن القلب في هٰذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده.

ويُجزم بصدق المحبة في الموطن الرابع، وهو عند المثول بين يديه في الصلاة، فإن قرت عينه وحضر في ذكره، واطمأن قلبه، واستراح وانشرح؛ فهو ذاك، وإلا؛ فلا يمكن أن يكون النَّقَّارُ محباً[1].

وفي «التذكرة في الوعظ»[2]:

الْزَمْ طَرِيقَ الذِّكْرِ عُمْرَكَ دائِباً ... فالذِّكْرُ في القَلْبِ المَحَبَّةَ زارِعُ

فصل

ومن فضائل الذكر: أن الله عز وجل مع الذاكر؛ كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[3].

قال ابن القيم[4]: وهٰذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (ص ٥٤٢).

(٢) (ص ٥٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢)، وأحمد (٢ / ٥٤٠)، والبخاري (١٣ / ٤٩٩ ـ «فتح») تعليقاً، وأخرجه غيرهم.

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

العامة؛ فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق.

قال: والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة. اهـ.

ومن فضائله: ما رواه النعمان بن بشير؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ: التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ (أو: لَا يَزَالَ لَهُ) مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟!»[1].

ومن فضائل الذكر: ما في «مسند أحمد»[2] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاء فقال: أوصني. فقال: سألت عما سألت عنه رسولَ الله ﷺ من قبلك:

«أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ».

ومن فضائل الذكر العظيمة: أنه يوجب الاستغفار من الأوزار، وحل عقدة الإصرار، ودليله قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٩)، والحاكم (١ / ٥٠٣)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «مختصر العلو» (ص ٩٦).

(٢) (٣ / ٨٢)، وهو في «الصحيحة» (رقم ٥٥٥).

(٣) آل عمران: ١٣٥.

قال محمد رشيد رضا[1]: ذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده، أو عقابه، أو ذكر عظمته وجلاله.

وقال الزمخشري[2]: ﴿ذكروا الله﴾: تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم، وجلاله الموجب للخشية والحياء منه. اهـ.

وكذا من فضائل الذكر: أن مجالسه سبب لنيل المغفرة، وتبديل السيئات حسنات؛ ففي الحديث:

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ، فَقَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»[3].

ومن فضائل الذكر: ثناء الله عز وجل على أهله الذين لا يشغلهم عنه شيء من أمر الدنيا؛ فقال سبحانه:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾[4].

قال ابن سعدي[5]: ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها؛ فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها (يعني: المساجد)

---

(١) «مختصر تفسير المنار» (١ / ٤٠١).

(٢) «الكشاف» (١ / ٢١٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٥٧٩) وغيره، وهو في «الصحيحة» برقم (٢٢١٠).

(٤) النور: ٣٦ و ٣٧.

(٥) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣ / ٤٠٣).

والاعتكاف، وغير ذٰلك من العبادات التي تفعل في المساجد.

ومن فضائل الذكر العظيمة: ما في «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِلهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللهَ؛ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قال: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قال: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَاذَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قال: تَقُولُ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ. قال: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قال: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ. قال: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قال: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ؛ لَكَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيداً، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحاً. قال: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قال: يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قال: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قال: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قال: يَقُولُ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قال: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قال: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قال: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاراً، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قال: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قال: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ».

ومن فضائل الذكر أيضاً: ما في «صحيح مسلم»[2] عن أبي سعيد

---

(١) «صحيح البخاري» (١١ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ «فتح») و«صحيح مسلم» (٢٦٨٩).

(٢) (٢٧٠١).

الخدري رضي الله عنه؛ قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله! ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال:

«مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا. قال: «آللهُ! مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال:

«أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلٰكِنْ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي: أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمُ المَلاَئِكَةَ».

قال النووي[1]: (إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)؛ معناه: يُظهِر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله وأهله؛ أي: يفخر ويتجمل بهم على غيرهم، ويظهر حسنهم.

وقال ابن القيم[2]: فهٰذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزيّة على غيره من الأعمال.

ومن فضائل الذكر: أنه سبب تنزيل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر؛ فعن الأغر قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري؛ أنهما شهدا على النبي ﷺ؛ أنه قال:

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٧ / ٢٣).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٩٣).

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[١].

قال الشوكاني[٢]: قوله: (حفتهم الملائكة)؛ أي: أحدقت بهم واستدارت عليهم.

ومعنى (غشيتهم الرحمة): سترتهم؛ أخذاً من التغشي بالثوب، والسكينة: هي الطمأنينة والوقار.

قال: وفي الحديث ترغيب عظيم للاجتماع على الذكر؛ فإن هٰذه الأربع الخصائص في كل واحدة منها على انفرادها ما يثير رغبة الراغبين، ويقوي عزم الصالحين على ذكر رب العالمين.

وفي «التذكرة في الوعظ»[٣]: كم لله في مجالس الذكر من عين محرمة على النار؟! كم قد وضع فيها عن الظهور من ثقل الأوزار، وتنفجر فيها ينابيع الرحمة، ويتوفر فيها على الحاضرين من النعمة، ويُعطى كل سائل ما سأله، ويبلغ كل آمل ما أمّله من كرم ذي الجلال والإكرام، ومواهب من له الفضل والإنعام، الذي لا يتعاظم ذنب غفره لجانيه، ولا فضل وهبه لسائليه؟! فأحضروا في هٰذه الساعة قلوبكم، واغسلوا بماء التوبة ذنوبكم، واستغفروا ربكم؛ فإنه يغفر ذنوب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) وغيره، وفي لفظ عن أبي هريرة وحده: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، وهو قطعة من الحديث (٢٦٩٩).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ١٢).

(٣) (ص ٢٧).

المستغفرين، واعتذروا إليه من تقصيركم؛ فإنه يقبل عذر المعتذرين، واستنصروه على من بغى عليكم؛ فما أسرع نصرته إلى المستنصرين.

وفي «لطائف المعارف»[1]: يا من ضاع قلبه! انشده في مجالس الذكر؛ عسى أن تجده. يا من مرض قلبه! احمله إلى مجالس الذكر؛ لعله أن يعافى.

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه غراس الجنة؛ كما في الترمذي[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَقْرِىءْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ[3]، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مَرَّ به وهو يغرس غرساً، فقال:

«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! مَا الَّذِي تَغْرِسُ؟» قلت: غراساً لي. قال:

---

(١) (ص ٧٨).

(٢) (٣٤٦٢). وقواه الألباني في «الصحيحة» (١ / ١٦٦) بشاهدين.

(٣) (قيعان): جمع قاع، وهو المكان المستوي الواسع في وطأةٍ من الأرض، يعلوه ماء السماء، فيمسكه، ويستوي نباته. «نهاية».

«أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ هٰذَا؟» قال: بلى يا رسول الله. قال:

«قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ يُغْرَسْ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ»(١).

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»(٢).

ولابن القيم(٣):

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا القِيعَانُ فَاغْـ ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الفَانِي

وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّـ ـحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمٰنِ

تَبّاً لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ

يَا مَنْ يُقِرُّ بِذَا وَلاَ يَسْعَى لَهُ بِاللَّهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٧)، والحاكم (١ / ٥١٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٥)، وابن حبان (٢٣٣٥ ـ «موارد»)، والحاكم (١ / ٥٠١ ـ ٥٠٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي ـ كذا الصواب: شرط مسلم ـ. انظر: «الصحيحة» (١ / ٩٥).

وروى الحديث غير من ذكرنا.

(٣) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (ص ٢٤٧).

أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا　　سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ
وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا　　تَرْجُو المَغَلَّ يَكُونُ كالكِيمَانِ
مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ　　هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى القُرْآنِ

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه أعظم أسباب النجاة من عذاب الله تعالى؛ كما في «مسند أحمد»(1) رحمه الله، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً قَطُّ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

قال النيسابوري(2): الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكره سبحانه، والمخلص من عذاب جهنم هو ذكره، وكل من له ذوق وجد من نفسه أن الأمر كذلك؛ فإن القلب إذا غفل عن الذكر وأقبل على الدنيا؛ وقع في نار الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، فإذا فتح على قلبه باب الذكر؛ خلص من نيران الآفات، وخسران الحسرات، إلى معرفة رب الأرض والسماوات.

---

(1) (٥ / ٢٣٩). وهو في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٥٥٢٠).
والحديث من أدلة فضل الذكر، وأنه من أعظم أسباب النجاة من مخاوف عذاب الآخرة، وهو أيضاً من المنجيات من عذاب الدنيا ومخاوفها. كذا في «سبل السلام» (٤ / ٢١٣).

(2) «تفسيره» (٩ / ٨٣ ـ حاشية «تفسير الطبري»).

وللإلبيري[1]:

يا أيُّها النَّاسُ خُذوا حِذْرَكُمْ ... وحَصِّنوا الجُنَّةَ للنَّارِ

فإنَّها مِنْ شَرِّ أعدائِكُمْ ... ما في العِدا أعْدَى مِنَ النَّارِ

وأكْثِروا مِنْ ذِكْرِ مَوْلاكُم ... فذِكْرُهُ يُنْجي مِنَ النَّارِ

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه إن صاحَبه البكاء في الخلوة؛ كان الذاكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة؛ كما في «الصحيحين»[2] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ...»، وفيه: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه[3]: عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكرَ الرحمٰن ففاضت عيناه من خشية

---

(١) «ديوانه» (ص ٨٥ ـ ٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢ / ١٤٣ و٣ / ٢٩٢ و١١ / ٣١٢ و١٢ / ١١٢ ـ «فتح»)، و«صحيح مسلم» (١٠٣١).

(٣) أورد هٰذا الخبر ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ٨)؛ قال: أخبرنا عبد الوهاب ابن المبارك، نا أحمد بن الحداد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا محمد بن أحمد بن الحسين، ثنا بشر بن موسى، ثنا محمد بن سعيد، ثنا ابن المبارك، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبيّ.

وانظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٠ / ٧٧)، و«استقامته» (١ / ٢٥٤).

الله فتمسه النار، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في إخلاف.

وقال مالك بن دينار[1]: لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خالٍ يُذكر الله فيه.

وقال شيخ الإسلام[2]: لا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يُشركه فيها غيره؛ فهٰذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه: إما في بيته[3] كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ٧٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٤٢٦).

(٣) إن كان بيتاً إسلامياً ليس فيه محرمات؛ من مخالطة، أو تلفاز تعرض فيه صور المغنيات والفاجرات، وتسمع فيه أصوات المعازف، وخاصة المثيرة للفسوق والمجون، وغير ذلك من أسباب هدم الدنيا والدين، وإلا؛ فعلى الناصح لنفسه أن يطلب هذه الخلوة المشروعة في مكان آخر كالمسجد، ونعم البيت هو؛ فـ«المَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ مُؤْمِنٍ»، كما قال رسول الله ﷺ.

أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٦ / ١٧٦)، وحسنه الألباني. انظر: «الصحيحة» (٢ / ٣٤٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ المَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ؛ إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ».

أخرجه ابن ماجه (٨٠٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٠٣)، وغيرهما.

وفي رواية عند ابن خزيمة ذكرها المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٢١٨): «مَا مِنْ رَجُلٍ كَانَ تَوَطَّنَ المَسَاجِدَ، فَشَغَلَهُ أَمْرٌ أَوْ عِلَّةٌ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا كَانَ؛ إِلَّا =

فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.

فصل

ومن فضائل الذكر: أنه يورث حياة القلب. أفاده ابن القيم[1]، ثم قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه وهو يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك؛ فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

وقال في «مدارج السالكين»[2]: حياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب.

وقال في «الكافية»[3]:

وَحَيَاةُ قَلْبِ العَبْدِ فِي شَيْئَيْنِ مَنْ ... يُـرْزَقْهُمَـا يَحْيَـى مَـدَى الأَزْمَـانِ

فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الأُخْرَى يَكُو ... نُ الحَيَّ ذَا الرِّضْوَانِ والإِحْسَانِ

ذِكْـرُ الإِلٰـهِ وَحُبُّهُ مِـنْ غَيْـرِ إِشْـ ... ـرَاكٍ بِـهِ وَهُمَـا فَمُمْتَنِعَـانِ

مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقّاً كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

= يَتَبَشْبَشُ اللهُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ».
وصححها الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٢٥).

(١) «الوابل الصيب» (ص ٥٣).

(٢) (٣ / ٢٦٣).

(٣) (ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

وقال في «إغاثة اللهفان»[1]: ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من طاعته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهٰذا الأمر.

قال: ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

وقال ابن رجب[2]: القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر.

ونظمها الشاعر؛ فقال[3]:

وَالذِّكْرُ فِيهِ حَيَاةُ القُلُوبِ كَمَا ... يُحْيِي البِلَادَ إِذَا مَا مَاتَتِ المَطَرُ

ومن فضائل الذكر: أنه ينوب عن إنفاق المال وقيام الليل والحج والعمرة والجهاد؛ ففي «الصحيحين»[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون. قال:

«أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ

---

(١) (١ / ٧٢) بتصرف يسير.

(٢) «لطائف المعارف» (ص ١٠).

(٣) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص ١٧٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٢ / ٣٢٥ و١١ / ١٣٢ «فتح»)، و«صحيح مسلم» (٥٩٥).

أَحَدٌ مِنْ بَعْدِكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ؛ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ: تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ».

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَنَّ بِالمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَبِاللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ؛ فَعَلَيْهِ بِسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»[1].

ومن فضائل الذكر: أنه يعين على شرائع الإسلام ويسهلها على العبد؛ فعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه؛ أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي؛ فأنبئني بشيء أتشبث به، فقال:

«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[2].

قال المباركفوري[3]: (أتشبث به)؛ أي: أتعلق به وأستمسك، ولم يُرد أنه يترك شرائع الإسلام رأساً، بل طلب ما يتشبث به بعد الفرائض عن سائر ما لم يفترض عليه. قاله الطيبي.

(قال: لا يزال)؛ أي: هو أنه لا يزال (لسانك رطباً من ذكر الله)؛ أي: طرياً مشتغلاً قريب العهد منه، وهو كناية عن المداومة على الذكر. اهـ.

---

(1) «صحيح الجامع الصغير» (٦٢٥٣).

(2) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، والحاكم (١ / ٤٩٥)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وبقولهما قال الألباني في «تخريج الكلم» (رقم ٣).

وتقدم في أول هٰذا الباب لفظ الحافظ أبي نعيم في «الحلية» (٦ / ١١١ ـ ١١٢).

(3) «تحفة الأحوذي» (٩ / ٣١٥).

قال ابن القيم[(١)]: فَدَلَّه الناصح ﷺ على شيء يعينه على شرائع الإسلام، والحرص عليها، والاستكثار منها؛ فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب؛ فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام؛ فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل.

يوضحه: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته؛ فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك. اهـ.

ومن فضائل الذكر: أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا به؛ كما في الحديث أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا...» الحديث، وفيه: «وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعاً، حَتَّى أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذٰلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»[(٢)].

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و٢٨٦٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٨٣)، وابن حبان (٨ / ٤٣ ـ «إحسان»)، والحاكم (١ / ١١٨)، وصححه.

وكذا أخرجه الطيالسي (١١٦١)، وصحح إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ٣٦٩٤).

قال ابن القيم[1]: وهٰذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾؛ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخنّاس، والخناس: الذي إذا ذَكر العبدُ اللَّهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مبادىء الشر كله؛ فما أحرزَ العبدُ نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل.

وقال[2]: فلو لم يكن في الذكر إلا هٰذه الخصلة الواحدة؛ لكان حقيقاً بالعبد ألا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره؛ فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة؛ فهو يرصده؛ فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع[3] وكالذباب، ولهٰذا سُمِّي (الوسواس الخناس)؛ أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خنس؛ أي: كف وانقبض.

وفي «التذكرة في الوعظ»[4]: ذاكر الله لا يستطيع الشيطان في ذكره مقيلاً، ذاكر الله لا يجد الشيطان إلى إغوائه سبيلاً، ذاكر الله لا يزال شيطانه مدحوراً ذليلاً، ذاكر الله قد تكفل الله بحفظه، وكيف يضيع من كان الله بحفظه كفيلاً؟!

وفيها[5]: لا يزال الإنسان صريعاً تحت الشيطان حتى يذكر الله

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٧٠).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

(٣) طائر أصغر من العصفور.

(٤) (ص ١١٧).

(٥) (ص ١٥٢).

تعالى ويتلو القرآن؛ فحينئذ يستوي الإنسان قائماً، ويخر الشيطان صريعاً.

فمن شاء أن يكون العدو عن لحاقه بطيئاً؛ فليكن إلى الذكر والتلاوة سريعاً.

وفيها[(١)]: مَسَّة الشيطان ليس لها غير ذكر الله ترياق.

فصل

ويكفي في فضل الذكر: أن الدنيا وما فيها ملعون؛ إلا ذكر الله تعالى وما تعلق به؛ كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِماً، أَوْ مُتَعَلِّماً»[(٢)].

قال الطِّيبي[(٣)]: فيه أن ذكر الله أفضل الأعمال، ورأس كل عبادة.

قال ابن الجوزي[(٤)]: كيف لا تكون الدنيا ملعونة وهي عن ذكر الله شاغلة؟ ولمن نظر إليها فاتنة، ولمن ركن إليها قاتلة، ولمن استصحبها غاشّة، ولمن استنصرها خاذلة؟!

---

(١) (ص ١١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وغيرهما، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٧١).

(٣) انظر: «فيض القدير» (٣ / ٥٤٩).

(٤) «التذكرة» (ص ٨٦).

وروى ثوبان رضي الله عنه؛ قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل[1] قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذٰلك. فأوضع على بعيره[2]، فأدرك النبي ﷺ وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله! أي المال نتخذ؟ فقال:

«لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً، وَلِسَاناً ذَاكِراً، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ»[3].

فصل

وهٰذه خمس وعشرون فائدة لذكر الله تعالى انتقيتها من كلام ابن القيم رحمه الله[4]:

الأولى: أنه يرضي الرحمٰن عز وجل.

الثانية: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الثالثة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الرابعة: أنه يقوِّي القلب والبدن.

الخامسة: أنه ينوِّر الوجه والقلب.

---

(١) أي: قول الله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ [التوبة: ٣٤].

(٢) أي: أسرع بعيره راكباً عليه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦)، وأحمد (٥ / ٢٨٢)، وغيرهم، ولفظ الترمذي: لو علمنا أي المال فنتخذه. فقال: «أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ».
والحديث في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢١٧٦).

(٤) «الوابل الصيب» (٥٢ ـ ١٠٣).

السادسة: أنه يجلب الرزق.

السابعة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

الثامنة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان؛ فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

التاسعة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره؛ أورثه ذٰلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله؛ فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه، وقبلة قلبه، ومهربه عند النوازل والبلايا.

العاشرة: أنه يورثه القرب منه؛ فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الحادية عشرة: أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الثانية عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله؛ لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل؛ فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الثالثة عشرة: أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد؛ صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قُوته.

الرابعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها؛ فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

الخامسة عشرة: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك

وتعالى؛ فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر.

السادسة عشرة: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل؛ فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره؛ تكلم بهٰذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى.

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذٰلك، فمن عوَّد لسانه ذكر الله؛ صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى؛ ترطَّب بكل باطل ولغو وفحش.

فإما لسان ذاكر، وإما لسان لاغ، ولا بد من أحدهما، فهي النفس؛ إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب؛ إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنه محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان؛ إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو وما هو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين.

السابعة عشرة: أنه يسعد الذاكر بذكره، ويسعد به جليسه، وهٰذا هو المبارك أين ما كان، والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته ويشقى به مُجالسه.

الثامنة عشرة: أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها؛ فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه؛ لَشَقَّ عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذٰلك.

التاسعة عشرة: أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده؛ فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

وإذا نسي العبد نفسه؛ أعرض عن مصالحها ونسيها، واشتغل عنها؛ فهلكت وفسدت ولابد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذٰلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه، واشتغل عنه بغيره، وضيع مصالحه؛ فإنه يفسد ولا بد.

هٰذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه؛ فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها، واشتغل عن مصالحها، وعطّل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها؟! فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهٰذا هو الذي صار أمره كله فرطاً؛ فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك. ولا سبيل إلى الأمان من ذٰلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكِنّ[2] في شدة الشتاء والسَّموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهٰذه المنزلة وأعظم؛ فأين

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) الغطاء والوقاء، وما يَرُدّ الحر والبرد من الأبنية والمساكن.

هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟!

هٰذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد منه، وأمّا هلاك القلب والروح؛ فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هٰذه الفائدة وحدها؛ لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة.

العشرون: أن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط؛ فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى.

الحادية والعشرون: أن الذكر ينبه القلب من نومه ويوقظه من سنته، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته؛ شد المِئزر، وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر؛ فإن الغفلة نوم ثقيل.

الثانية والعشرون: أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون؛ فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها؛ كان أعظم لثمرتها؛ فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام وقاعدته التي ينبني ذٰلك المقام عليها، كما ينبني الحائط على أسه، وكما يقوم السقف على حائطه، وذٰلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقظ إلا بالذكر ـ كما تقدم ـ؛ فالغفلة نوم

القلب أو موته.

الثالثة والعشرون: أن الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه؛ فالقلوب مريضة، وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى.

الرابعة والعشرون: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1]؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكري.

الخامسة والعشرون: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه؛ لكفى به.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل.

فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه، ولا أعظم لذة ولا أكثر فرحة وابتهاجاً للقلب.

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»[2]: الذكر منشور الولاية، الذي من أُعطيه اتصل، ومن مُنعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسببُ الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب.

---

(١) طه: ١٤.

(٢) (٢ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤) باختصار وتصرف.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلم البلاء؛ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل؛ فإليه مفزعهم؛ فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكوراً[1].

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، وكما أن الجنة قيعان وهو غراسها؛ فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره واستغرق فيه؛ ازداد المذكور سبحانه محبة إلى لقائه، وإذا واطأ في ذكره قلبُه للسانه؛ نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زيّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زيّن بالنور أبصار الناظرين؛ فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم، المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر؛ كان

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة : ١٥٢] لا غير، وقد تقدم وما في معناه من الأحاديث.

كالجسد الذي لا روح فيه.

وقال في «زاد المعـاد»[1]: ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره[2] على كل حـال، وفي كل موطن؛ فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

وفي «التذكرة في الوعظ»[3]:

يـا طـالِبَ الخَيْـراتِ أيْـنَ أنْـتَ عَـنْ بـابِ الغَنِـيِّ الحَمِيـدِ

يـا خـائِـفَ الشَّـرِّ هَـلاَّ لَجَـأْتَ إلـى رُكْـنِ القَـوِيِّ الشَّـدِيـدِ

يا مَنْ قَدِ اعْتَكَرَتْ على قَلْبِهِ الهمومُ لِمَ لا تُرَوِّحُ بِذِكْرِ الحَمِيدِ المَجِيدِ

وقال بعضهم: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هٰذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر، والذكر على ضربين: ذكر اللسان وذكر القلب؛ فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه؛ فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه.

وقال غيره: ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بأن يذكر الله تعالى؛ إمّا فرضاً وإما ندباً، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات؛ فقد لا تجوز في بعض الأوقات، والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات. اهـ.

---

(١) (٢ / ٢٥).

(٢) أي: ذكر الله تعالى.

(٣) (ص ٥٨).

قال ابن القيم[1]: الذكر يسير العبد وهو في فراشه وفي سوقه، وفي حال صحته وسقمه، وفي حال نعيمه ولذته، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله.

* * *

(١) «الوابل الصيب» (ص ٦٢).

الباب الرابع

في أحوال المؤمنين
عند ذكر الله تعالى

أحوال المؤمنين عند ذكر الله تعالى

وإنما ذكرت هٰذا الباب وإن كان مُختصراً؛ تحذيراً لمن يذكر الله عز وجل بلسانه دون استحضار المعاني، أو بهما لٰكن دون استحضار القلب ما اشتمل عليه الذكر من التعظيم لله عز وجل، أقول: ذكرت ذٰلك تحذيراً له من الغِرَّة والدعوى؛ إذ الذكر باللسان مع معرفة المعنى شيء، ومواطأة القلب للسان شيء آخر، وتعظيم القلب لله تعالى وخشيته فوق هٰذا، وامتلاء القلب من محبة الله وخشيته ورجائه، مفيضاً على الجوارح تقوى الله عز وجل، والمسابقة لمرضاته؛ فوق ذٰلك كله، والأمر درجات كثيرة وفوق ما يخطر بالبال، نسأل الله تعالى من فضله.

وفي وصف حال المؤمنين عند ذكر الحق جل وعلا، وسماع كلامه المجيد؛ قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾؛ أي:

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٢ / ١٨٨).

خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾؛ قال: ووجه ذٰلك أنهم يُلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره؛ فعند ذٰلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يتبين لهم معنى كانوا يجهلونه، ويتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات وازدجاراً عن المعاصي، وكل هٰذا مما يزداد به الإيمان.

وقال الزمخشري[1]: ﴿وجلت قلوبهم﴾: فزعت لذكره؛ استعظاماً له، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه، وبطشه بالعصاة وعقابه.

وقال سيِّد قطب[2]: فمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم. اهـ.

ومن أحوال المؤمنين عند ذكر الله تعالى: اقشعرار الجلد، قال تعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: أي: هٰذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار

---

(١) «الكشاف» (٢ / ١١٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٥ / ٥٩٩).

(٣) الزمر: ٢٣.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٥٠ ـ ٥١).

المهيمن العزيز الغفار؛ لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾؛ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه. اهـ.

ومن أحوال المؤمنين عند الذكر: أن قلوبهم تطمئن بذكر مولاهم الحق جل وعلا، ولا مطمئن لها سواه؛ كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾؛ أي: هو حقيق بذلك.

وقال ابن سعدي[3]: أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾؛ قال: أي: حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره؛ فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أحلى من محبة الله والأنس به ومعرفته.

وقال[4]: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾؛ فتسكن القلوب عند الأخبار؛ فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئناً عالماً أن هذا أعظم فائدة حصّلتها القلوب، ويطمئن عند الأوامر والنواهي؛ مكملاً

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) «تفسيره» (٢ / ٥١٢).

(٣) «التيسير» (٢ / ٤٧١).

(٤) «خلاصة تفسير القرآن» (ص ١٨٣).

للمأمورات، تاركاً للمنهيات، راجياً لثواب الله، واثقاً بوعده.

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره؛ فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم؛ فيخف عليه حملها، ويهون عليه ثقلها.

وقال القاسمي[1]: أي: تسكن وتخشى عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾؛ أي: بذكره دون غيره تسكن القلوب؛ أنساً به واعتماداً عليه ورجاء منه.

وقال الشاعر[2]:

بِذِكْرِ اللَّـهِ تَـرْتَـاحُ القُلُـوبُ ... ودُنْيَـانَـا بِـذِكْـرَاهُ تَطِيـبُ

وفي «جامع العلوم والحكم»[3]: قلوب المحبين لا تطمئن إلا بذكره، وأرواح المشتاقين لا تسكن إلا برؤيته.

قال ذو النون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته.

وقال ابن الجوزي[4]: لو جرى ذكر العزيز الحكيم كما ينبغي له من الإجلال والتعظيم؛ لشُفِيَ بذكره كل سقيم، ولٰكن عزّ على أكثر الخلائق توفية الإجلال عند ذكر اسم الخالق.

---

(١) «محاسن التأويل» (٩ / ٣٦٠).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ١١).

(٣) (ص ٤١٩).

(٤) «التذكرة في الوعظ» (ص ١٣٨).

قلت: ويدخل في هٰذا الذكر ـ الذي تطمئن القلوب به ـ التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ونحو ذلك، وتلاوة القرآن العظيم وسماعه، وتدبر ما فيه من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وقصصه ومواعظه، ولهٰذا الذكر وبه تسكن القلوب وترضى، وتثمر أنواع الأحوال الإيمانية والمعارف الإلهية، وبه سعادة العبد في الدنيا والآخرة، وفوزه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما من لم يلن لهٰذا الذكر وأعرض عنه؛ فقد شقي في الدنيا والآخرة، والويل له؛ كما قال الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: أي: لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها ملتفتة إلى غيره؛ فهٰؤلاء لهم الويل الشديد والشر الكبير.

﴿أولٰئك في ضلال مبين﴾، وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره؟!!

وقال[3]: القلب القاسي[4] لا تؤثر فيه الآيات شيئاً، ولا يزداد مع

---

(١) الزمر: ٢٢.

(٢) «التيسير» (٤ / ٣١٧).

(٣) «المواهب الربانية» (ص ٦٨).

(٤) أي: الذي تناهت به القساوة، وخُتِم له بها، وإن كان هناك مجال لتليينه؛ فلا شيء=

التذكير إلا تمادياً في غيه وطغيانه وضلاله، والقلب الخاشع لما كان حسن القصد متواطئاً على الحق طالباً له مستعداً لقبوله، لما وصل إليه الحق عرفه وعرف الحاجة بل الضرورة إليه؛ ففرح به، واطمأن به، وزادت رغبته، وأثر في قلبه خضوعاً، وفي عينيه دموعاً، وفي جلده قشعريرة، ثم يلين قلبه ويطمئن إلى ذكر الله تعالى.

قال ابن القيم[1]: إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى؛ فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى.

وذكر حماد بن زيد عن المعلى بن زياد؛ أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد! أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أَذِبْهُ بالذكر.

وهٰذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة؛ فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار؛ فما أُذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل.

وقال في «الفوائد»[2]: ما ضُرِبَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله. خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. أبعد القلوب من الله القلب القاسي. إذا قسا القلب قحطت العين. قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة.

وقال العزيز الحكيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

= في ذٰلك كالآيات البينات، والأذكار الشريفات.

(١) «الوابل الصيب» (ص ٨٩).

(٢) (ص ١٢٨ ـ ط. دار النفائس).

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1].

قال ابن القيم[2]: أي: تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها ولم تعمل بها.

قال: وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ونعمه؛ فإن هٰذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة؛ أي: مَنْ أعرض عن كتابي ولم يَتْلُه، ولم يتدبره، ولم يعمل به، ولا فهمه؛ فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مُضَيَّقة عليه منكدة معذباً فيها.

والضنْك: الضيق والشدة والبلاء، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هٰذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح أنها تتناول معيشته في الدنيا وحاله في البرزخ؛ فإنه يكون في ضنك في الدارين، وهو شدة وجهد وضيق، وفي الآخرة يُنسى في العذاب، وهٰذا عكس أهل السعادة والفلاح؛ فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب.

وقال رحمه الله[3]: من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن

---

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٥٩).

(٣) «الفوائد» (ص ٦١).

تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلُّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه.

وأعجب من هٰذا علمك أنك لا بدّ لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه مُعرض وفيما يبعدك عنه راغب.

فصل

ومن أحوال الموفقين: الخشوع عند سماع آيات الله تعالى؛ فقال جل وعلا واصفاً من أسلم من علماء أهل الكتاب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۩ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[1].

ودعا الله سبحانه إلى تحقيق هٰذا الحال الإيماني، وهو (الخشوع) لذكره سبحانه؛ فقال:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

قال القاسمي[3]: قوله تعالىٰ: ﴿ألم يأن﴾؛ أي: ألم يحن، من أَنَى

---

(١) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) «محاسن التأويل» (١٦ / ٤٥).

الأمر يأني، إذا جاء إناه؛ أي: وقته.

وقوله تعالى: ﴿للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾؛ أي: أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم، وما يوجبه من الوجل منه والخشية.

وقال ابن سعدي[1]: وهٰذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلٰهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك.

﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة؛ فاضمحل إيمانهم، وزال إيقانهم.

﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾؛ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذَكَّر بما أنزل الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإنه سبب لقسوة القلب وجمود العين.

وقال ابن الجوزي[2]: والله؛ لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص؛ بتفكير وتدبّر؛ لتصدع من خشية الله قلبه، وتحيَّر في عظمة الله لُبّه. اهـ.

وقال الحق جل وعلا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا

---

(١) «التيسير» (٥ / ١٧٩).

(٢) «التذكرة» (ص ٧٣ ـ ٧٤).

﴿مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

فصل

والخشوع يتضمن معنيين:

أحدهما: التواضع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة.

وذلك مستلزم لِلين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في العبادة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون. أفاده شيخ الإسلام[2].

وقال ابن رجب[3]: أصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب؛ تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له.

وعَرّف ابن سعدي الخشوع بأنه[4]: حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه. ثم قال: فهذا خشوع خاص. وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين؛ فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته، فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة.

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) «الإيمان» (٢٤ ـ ٢٥).

(٣) «الخشوع في الصلاة» (ص ١١).

(٤) «خلاصة تفسير القرآن» (ص ٢٠١).

وقال في «المواهب الربانية»[1]: الخاشع هو الذي سكن في قلبه تعظيم الله ووقاره، وتصديق وعده ووعيده؛ فَذَلَّ وخضع، وانقادت جوارحه لما أُمرت به، وترك الأشر والبطر والمرح المنافي للخشوع، وكلما بعد القلب عن هٰذا الوصف قسا وغلظ؛ فلم يخضع لأمر الله، ولا أثّر فيه الذكر، بل ربما زاد خساراً وافتتن عند المحن والشبهات.

وقال في «المواهب» أيضاً[2]: خشوع القلب عنوان الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوته وعدم خشوعه عنوان الشقاوة، فالخشوع انكسار القلب وذله بين يدي ربه، وأن يبقى هٰذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته: إن غفل رجع إليه، وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبد وقربة من القربات خضع فيها وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أم العبادات والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان، وهي الصلاة؛ فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة ومرتبة الإحسان.

وقال ابن القيم[3]: الحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار.

فصل

وكان رسول الله ﷺ يستعيذ من قلب لا يخشع؛ كما في «صحيح مسلم»[4] عن زيد بن أرقم؛ أن النبي ﷺ كان يقول:

---

(١) (ص ٧٠).

(٢) (ص ٦٧ ـ ٦٨).

(٣) «مدارج السالكين» (١ / ٥٢٠).

(٤) (رقم ٢٧٢٢).

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

وقال ﷺ: «أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ؛ حَتَّى لاَ تَرَى فِيهَا خَاشِعاً»[١].

وقطع ابن القيم رحمه الله مادة «الدعوى» في الخشوع بالتفريق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق، فقال[٢]: الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق: أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق؛ فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق. قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع. فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته، وسكن دخانها عن صدره؛ فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه؛ فصار مخبتاً له، والمخبت المطمئن؛ فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء؛ فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء، وشداد بن أوس رضي الله عنهما. انظر: «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٢٥٦٦ و٢٥٧٣).

(٢) «الروح» (ص ٣١٤).

الأرض التي يجري إليها الماء، فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالاً له وذلاً وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه، وأما القلب المتكبر؛ فإنه قد اهتز بتكبره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء. فهذا خشوع الإيمان.

وأما التماوت وخشوع النفاق؛ فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاةً، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات، فهو يتخشع في الظاهر، وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة.

فصل

ومن أحوال المؤمنين عند ذكر الله عز وجل: البكاء؛ فقال الله تعالى عن أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[١].

قال ابن كثير[٢]: أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه؛ سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والبكيّ: جمع باك.

وقال ابن سعدي[٣]: ﴿خروا سجداً وبكياً﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم.

---

(١) مريم: ٥٨.
(٢) «تفسيره» (٣ / ١٢٧).
(٣) «التيسير» (٣ / ٢٠٩).

قال الطبري[1]: حدثنا ابن بشار؛ قال: ثنا عبد الرحمٰن؛ قال: ثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم[2]؛ قال: قرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد وقال: هٰذا السجود، فأين البكيّ[3]؟!

وقد جاء في فضل البكاء من خشية الله تعالى أخبار كثيرة؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[4].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال:

«لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيِ امْرِىءٍ أَبَداً»[5].

وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ؛ قال:

«لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي

---

(١) «جامع البيان» (١٦ / ٧٣).

(٢) سقط من هنا ذكر أبي معمر؛ كما قال ابن كثير في «تفسيره» (٣ / ١٢٧).

(٣) يريد: فأين البكاء.

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) وغيره، وقال الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٩): «صحيح لشواهده».

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣١١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦ / ١٢)، والحاكم (٤ / ٢٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في «تخريج المشكاة» (برقم ٣٨٢٨).
والحديث أخرجه أحمد أيضاً (٢ / ٥٠٥).

خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الأَثْرَانِ؛ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ تَعَالَى»[١].

فصل

ووصف الله سبحانه وتعالى من هدى من القسيسين والرهبان، فقال:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢].

قال الطبري[٣]: وفيض العين من الدمع امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها؛ كفيض النهر من الماء وفيض الإناء، وذٰلك سيلانه عن شدة امتلائه.

وقال ابن سعدي[٤]: ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ أثر ذٰلك في قلوبهم، وخشعوا له، وفاضت أعينهم؛ بحسب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٩)، وقال: «حديث حسن غريب»، وقال الألباني في «تخريج المشكاة» (ص ١١٢٧): «إسناده حسن».

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) «جامع البيان» (٧ / ٥).

(٤) «التيسير» (١ / ٥١١).

(٥) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

فصل

والبكاء عند الذكر هو حال سيد الخلق ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وفي ذٰلك أحاديث كثيرة، منها ما في «الصحيحين»[1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نَعَمْ». فقرأت سورة النساء حتى أتيت على هٰذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2]. قال: «حَسْبُكَ الآن». فالتفت إليه؛ فإذا عيناه تذرفان.

ومنها ما رواه عبد الله بن الشِّخير رضي الله عنه؛ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرجل من البكاء[3].

وقال ابن القيم[4] عن بكاء النبي ﷺ عند سماع القرآن الكريم: وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية.

وقال الغزالي[5]: البكاء مستحب مع القراءة، وإنما طريق تكلف

---

(١) «صحيح البخاري» (٨ / ٢٥٠ و٩ / ٩٣ و٩٤ و٩٨ - «فتح»)، و«صحيح مسلم» (٨٠٠).

(٢) النساء: ٤١.

(٣) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (٣ / ١٣)، وابن خزيمة (٢ / ٥٣)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (رقم ٣٢٣).
وقال شيخنا في «مختصره» (ص ١٦٩): «صحيح».
والحديث أخرجه أحمد أيضاً (٤ / ٢٥).

(٤) «زاد المعاد» (١ / ١٨٣).

(٥) «الإحياء» (١ / ٢٧٧) باختصار وتصرف.

البكاء أن يحضر قلبه أسباب البكاء، ووجه ذٰلك أن يتأمل ما في القرآن من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيبكي لا محالة، فإن لم يَحْضُرْه البكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية؛ فليبك على فقده؛ فإن ذٰلك من أعظم المصائب. اهـ.

وفي وجل الصحابة وبكائهم عند الموعظة: ما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه؛ قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هٰذه موعظة مودع؛ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله. . .» الحديث[(١)].

قال القرطبي[(٢)] عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(٣)]: وصف الله تعالى المؤمنين في هٰذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره، وذٰلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه، ونظير هٰذه الآية: ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[(٤)]،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ و٤٤)، والدارمي (١ / ٤٤ و٤٥)، والحاكم (١ / ٩٥ ـ ٩٨)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

والحديث أخرجه أيضاً أحمد (٤ / ١٢٦ ـ ١٢٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١٨١ و١٨٢)، وغيرهما.

وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧ / ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

(٣) الأنفال: ٢.

(٤) الحج: ٣٤ و٣٥.

وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]؛ فهٰذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض، وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ أي: تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام[3]، من الزعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذٰلك وزعم أن ذٰلك وجد وخشوع، لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذٰلك؛ فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله، ولذٰلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4]؛ فهٰذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك؛ فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن كان مُسْتَنّاً؛ فليستَنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون؛ فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون. اهـ.

وقال شيخ الإسلام[5]: وما يحصل عند الذكر المشروع من البكاء،

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) أراذل الناس وأوغادهم.

(٤) المائدة: ٨٣.

(٥) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١٠٠).

ووجل القلب، واقشعرار الجسوم؛ فمن أفضل الأحوال التي جاء بها الكتاب.

أما الاضطراب الشديد والغشي والصيحان؛ فإن كان صاحبه لم يعلم ما هو عليه لم يُلَمْ، وسببه قوة الوارد مع ضعف القلب، والقوة والتمكن أفضل؛ كما هو حال النبي ﷺ وأصحابه، وأما السكون قسوة وجفاء؛ فهٰذا مذموم.

ولخير الدين وانلي[1]:

الذِّكْرُ فِي النَّفْسِ لَيْسَ الذِّكْرُ بِالنَّغَمِ والله يَسْمَعُ هَمْسَ الذَّرِّ في الظُّلَمِ
قَدْ بيَّنَ اللهُ في القُرْآنِ مَبْلَغَهُ فإنَّهُ دونَ جَهْرِ القَوْلِ والكَلِمِ
إنْ كانَ يَسْمَعُ ربُّ الأنامِ فَمَا هٰذا الصُّراخُ الذي يُفْضي إلى الصَّمَمِ
مِنْ أيْنَ جاؤوا بهٰذا الذِّكْرِ وَيْحَهُمُ مِنْ هَيْشَةِ السُّوقِ أمْ مِنْ صَرْخَةِ الأَلَمِ
هَلْ كانَ أصْحابُ خَيْرِ الرُّسْلِ قاطِبَةً تَهْتَزُّ أرْدافُهُمْ في الذِّكْرِ بالنَّغَمِ
هَلْ كانَ ذاكِرُهُمْ بالدَّفِّ يَنْقُرُهُ هَلْ كانَ يَشْخِرُ في الحَلَقاتِ كالنَّعَمِ
هَلْ كانَ يَلْبَسُ طَرْطوراً لَهُ طَرَرٌ هَلْ كانَ يَرْكَعُ قَبْلَ الرَّقْصِ للصَّنَمِ
هَلْ كانَ يَعْزِفُ بالمِزمارِ يَنْفُخُهُ هَلْ كانَ يَفْتِلُ مِثْلَ اللَّوْلَبِ الهَرِمِ
هَلْ كانَ يَهْوي إلى الأذْقانِ صارِخُهُمْ تَظُنُّهُ ماتَ مَغْشِيّاً مِنَ اللَّمَمِ
يَظَلُّ يَنْخُرُ والأشْداقُ مُزْبِدَةٌ والعَيْنُ مُغْمِضَةٌ والقَلْبُ في صَمَمِ
ما كانَ ذِكْرُ أبي بَكْرٍ ولا عُمَرَ كَذِكْرِ شِرْذِمَةٍ عادَتْ مِنَ الأَجَمِ

---

(١) «ديوان الحق المبين» (ص ٦٩).

الذِّكْرُ تقوى وإخْلاصٌ ومَرْحَمَةٌ ... مـا الـذِّكْـرُ شَعْـوَذَةٌ أوْ زَعْقَـةٌ بِفَـمِ
الـذِّكْـرُ وَعْـيٌ وإحْسـانٌ وتَضْحِيَـةٌ ... ما الذِّكْرُ غَيْبُوبَةَ الآهاتِ مِنْ بَهَمِ
الـذَّاكِـرونَ أضاءَ الكَوْنُ مِشْعَلَهُمْ ... الـذَّاكِـرون أنـاروا حـالِـكَ الظُّلَـمِ
الذَّاكِرونَ مَشَى في الأرضِ فاتِحُهُمْ ... يُحَطِّـمُ البَغْـيَ والطُّغيـانَ بِـالقَـدَمِ
الـذَّاكِـرونَ أقـامـوا دَوْلَـةً خَفَقَتْ ... رايـاتُهـا فَوْقَ سَهْلِ الأرْضِ والعَلَمِ
الذَّاكِرونَ تعالى صَوْتُ قائِدِهِمْ ... بالذِّكْرِ في حَوْمَةِ الفُرْسانِ في الضَّرَمِ
الـذَّاكِـرونَ تهـاوى عِنْدَ صَرْخَتِهِـمْ ... اللـهُ أكبـرُ عَـرْشُ الـرُّومِ والعَجَـمِ
هٰذا هُوَ الذِّكْرُ هٰذا حالُ فاعِلِهِ ... مـا كـانَ دَرْوَشَـةً أو جَـذْبَـةَ العَـدَمِ
عودوا إلى اللهِ في ذِكْرٍ وفي عَمَلٍ ... وسَبِّحـوهُ بـأفْعـالٍ وبـالكَلِـمِ
واسْتَلْهِموا سُنَّةَ المُخْتارِ أحْمَدِنا ... وخَيْرِ مَنْ عَلَّمَ الأذْكارَ في الأُمَمِ
فَسُنَّةُ المُصْطَفَى نِبْراسُ دَعْوَتِنا ... في الذِّكْرِ والفِكْرِ في حَرْبٍ وفي سَلَمِ

فصل

ومن أحوال المؤمنين عند الذكر: الرجوع إلى الله عز وجل بالاستغفار من الجنايات، وترك الإصرار على المخالفات؛ لقوله تعالى في وصف المتقين:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وكيف لا يستغفرون من ذنوبهم ويقلعوا عن عيوبهم وقد وصفهم

(١) آل عمران: ١٣٥.

مولاهم الحق بقوله: ﴿إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾؛ فحق لمن ذكر الله عز وجل بالحضور والتدبر أن يستغفر من ذنبه ويترك الإصرار عليه؛ فإن ذِكر الله تعالى بالتعظيم والإجلال يورث الهيبة والحياء منه تعالى، فيوجب ذلك الانتهاء عن المعصية، ولا بد.

وكذا ذكر وعيده سبحانه مما في الدنيا والقبر والآخرة من أصناف العقوبات، يخلع العبد من المعاصي، ويقلق قلبه ويزعجه ويحرق منه الشهوات حرقاً، ويؤزه إلى الطاعات أزاً.

وكذا ذكر وعده سبحانه لأهل طاعته؛ من الأمن والراحة والسعادة والطمأنينة في الدنيا وفي البرزخ وفي الجنة، حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يوجب ولا بد المسارعة إلى تحصيل ذلك، ولا سبيل إليه إلا بترك معصية الله تعالى والإصرار عليها.

وقال المراغي في «تفسيره»[1]: الآية تومىء إلى أن المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً؛ لأن ذكرهم لله يمنعهم أن يقيموا على الذنوب. اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا ذُكِّرْتُمْ بِاللهِ؛ فَانْتَهُوا»[2].

قال المناوي[3]: أي: إذا ذكّركم أحد بوعيد الله وأليم عقابه، وقد

---

(١) (٤ / ٧٣).

(٢) أخرجه البزار (٣٢١١ ـ «كشف الأستار»)، وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» (برقم ١٣١٩).

(٣) «فيض القدير» (١ / ٣٤٨).

عزمتم على فعل شيء؛ (فانتهوا)؛ أي: كفّوا عنه إجلالاً لذكره تعالى وإعظاماً له.

وقال ابن الجوزي[1]: ليس الذاكر من قال: سبحان الله والحمد لله؛ وقلبه مصرٌّ على الذنوب، وإنما الذاكر من إذا همّ بمعصية ذكر مقامه بين يدي علام الغيوب؛ كما قال بعض السلف: ليس الذاكر مَن هَمْهَمَ بلسانه، وإنما الذاكر من إذا جلس في سوقه، وأخذ يزن بميزانه؛ علم أن الله مطلع عليه؛ فلم يأخذ إلا حقّاً، ولم يعط إلا حقّاً.

وروى أبو نعيم في «الحلية»[2] عن سعيد بن جبير؛ قال: الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله؛ فقد ذكره، ومن لم يطعه؛ فليس بذاكر؛ وإن أكثر التسبيح وقراءة القرآن.

قاعدة

تحرك القلوب إلى الله

قال شيخ الإسلام [3]: لا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل، فتعتصم به، فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته.

فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف؛ فإنه يزول في

---

(١) «التذكرة» (ص ٨٦).

(٢) (٤ / ٢٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١ / ٩٥ ـ ٩٦).

الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تُلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له؛ فإنه لا تصح له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه؛ فأي شيء يحرك القلوب؟!

قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. . .﴾ الآية[2].

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[6].

---

(١) يونس: ٦٢.

(٢) الأحزاب: ٤١ و٤٢.

(٣) الأعراف: ٦٩.

(٤) النحل: ٥٣.

(٥) لقمان: ٢٠.

(٦) إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه؛ من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة؛ من الإيمان وغيره؛ فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه.

وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحِلم والعفو. اهـ.

* * *

الباب الخامس

في أفضل الذكر
وأحبه إلى الله تعالى

أفضل الذكر وأحبه إلى الله تعالى

أعني بالذكر هنا تلاوة القرآن الكريم، وكذا التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والحوقلة والصلاة على النبي ﷺ ونحو ذلك، وكذا الدعاء بخيري الدنيا والآخرة، كل ذٰلك مما كان مطلقاً أو مقيداً، فأقول وبالله التوفيق:

أفضل الذكر للمبتدىء والمتوسط والمنتهي تلاوة القرآن الكريم، وهٰذا لا شك فيه البتة، وأفضل سوَره المجيدة: «الفاتحة»، وأفضل آياته: «الكرسي»، وما تقرب المتقربون إلى الله عز وجل بمثله، كيف لا وهو كلامه جل جلاله.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(1).

وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته:

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(2).

---

(1) الزمر: ٢٣.

(2) أخرجه مسلم (٨٦٧) وغيره.

قال النووي[1]: اعلم أن قراءة القرآن أفضل الأذكار؛ فينبغي المداومة عليها؛ فلا يخلي عنها يوماً وليلة.

قال ابن القيم[2]: قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هٰذا من حيث النظر لكل منهما مجرداً، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يُعَيِّنُه؛ فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهٰذا كالتسبيح في الركوع والسجود؛ فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها.

قال: ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه؛ كانت أفضل من كلٍّ من القراءة والذكر والدعاء بمفرده؛ لجمعها ذٰلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

وقال ابن رجب[3]: من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

وقال شيخ الإسلام[4]: قراءة القرآن أفضل من الذكر، وإن كان المفضول قد يكون أفضل[5]؛ فهٰذا متفق عليه بين أئمة الدين.

* * *

---

(١) «الأذكار» (ص ٩٢).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ١١٨ و١١٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٢).

(٤) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٩٦).

(٥) أي: لعارض. كما تقدم.

فصل

في تدبر القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٢).

وتدبر القرآن الكريم هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذٰلك. أفاده ابن سعدي(٣).

وقال النووي(٤): ينبغي للقارىء أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، وهٰذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر.

وقال ابن القيم(٥): ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلّ(٦) في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه،

---

(١) ص: ٢٩.

(٢) محمد: ٢٤.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (١ / ٣٧٦).

(٤) «الأذكار» (ص ٩٠). وانظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص ٤٣ ـ ٤٤).

(٥) «مدارج السالكين» (١ / ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٦) أي: تضع.

وتشيّد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحْضِره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وقال[1]: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مئة مرة، ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن؛ فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١ / ١٨٧).

فصل

وأفضل الذكر بعد القرآن قول: «لا إله إلا الله»؛ فأخرج الترمذي[١] وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ للهِ».

قال المناوي[٢]: رأس الذكر قول: «لا إله إلا الله»، وهي الكلمة العليا، وهي القطب الذي يدور عليه رحى الإسلام، والقاعدة التي بني عليها أركان الدين، والشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان، بل هي الكل وليس غيره.

وفي «الصحيحين»[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ».

فصل

وقول: «لا إله إلا الله» والتسبيح والتحميد والتكبير أحب الكلام

---

(١) (رقم ٣٣٨٣)، وحسّنه، ووافقه الألباني في «تخريج المشكاة» (برقم ٢٣٠٦).

(٢) «فيض القدير» (٣ / ١١٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٦ / ٣٣٨ و١١ / ٢٠١ ـ «فتح»)، و «صحيح مسلم» (٢٦٩١).

إلى الله عز وجل؛ ففي «صحيح مسلم»[(١)] وغيره عن سَمُرَة بن جُنْدَب رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ[(٢)]: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ».

وفي «مستدرك الحاكم»[(٣)] وغيره عن أبي سلمى راعي رسول الله ﷺ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بَخٍ بَخٍ[(٤)] بِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ».

وفي «مسند الإمام أحمد»[(٥)] عن عبد الله بن شداد: أن نفراً من بني عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يَكْفِينِيهِمْ». قال طلحة: أنا. قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثاً، فخرج

---

(١) (رقم ٢١٣٧).

(٢) قال المناوي في «الفيض» (١ / ١٧٣): «لأنها جامعة لجميع أنواع الذكر؛ من توحيد وتنزيه، وصنوف أقسام الحمد والثناء، ومشيرة إلى جميع الأسماء الحسنى».

(٣) (١ / ٥١١ ـ ٥١٢). وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٢٠٢).

(٤) «بخ بخ»: هي كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء، وتكرر للمبالغة، وهي مبنية على السكون، فإن وصَلْتَ جَرَرْتَ ونونتَ، فقلت: بَخٍ بَخٍ، وربما شُدِّدَتْ. وبَخْبَخْتَ الرجل؛ إذا قلت له ذلك، ومعناها تعظيم الأمر وتفخيمه. «نهاية».

(٥) (١ / ١٦٣). والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٢٥٨) على شرط مسلم.

فيه أحدهم فاستشهد، قال: ثم بعث بعثاً، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه. قال طلحة: فرأيت هٰؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة؛ فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم. قال: فدخلني من ذٰلك، قال: فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذٰلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ:

«وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذٰلِكَ؟ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الإِسْلَامِ؛ لِتَسْبِيحِهِ، وَتَكْبِيرِهِ، وَتَهْلِيلِهِ».

وفيه أيضاً[1] عن أم هانىء بنت أبي طالب؛ قالت: مَرَّ بي ذات يوم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! إني قد كبرت وضعفت ـ أو كما قالت ـ، فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال:

«سَبِّحِي اللهَ مِئَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللهَ مِئَةَ تَحْمِيدَةٍ تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَبِّرِي اللهَ مِئَةَ تَكْبِيرَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ، وَهَلِّلِي اللهَ مِئَةَ تَهْلِيلَةٍ ـ قال ابن خلف: أحسبه قال: ـ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لأَحَدٍ عَمَلٌ؛ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ».

فصل

وأفضل الذكر بهٰذه الكلمات: المركب منها أو المضاعف، وكذا المركب المضاعف، وهو أكثرها فضلاً وأعظمها أجراً.

---

(١) (٦ / ٣٤٤). وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٣٠٣).

وأعني بالمركب مثل قول: سبحان الله وبحمده؛ ففي «صحيح مسلم»[1] عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ؟» قلت: يا رسول الله! أخبرني بأحب الكلام إلى الله. فقال: «إِنَّ أَحَبَّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

وفي «الصحيحين»[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمٰنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ».

قال الحافظ[3]: في الحديث حث على المواظبة على هٰذا الذكر، وتحريض على ملازمته؛ لأن جميع التكاليف شاقة على النفس، وهٰذا سهل، ومع ذٰلك يثقل في الميزان كما تثقل الأفعال الشاقة؛ فلا ينبغي التفريط فيه.

وقال[4]: قال ابن بطال[5]: هٰذه الفضائل الواردة في فضل الذكر

---

(١) (رقم ٢٧٣١).

(٢) «صحيح البخاري» (١١ / ٢٠٦ و٥٦٦ و١٣ / ٥٣٧ ـ «فتح»)، و«صحيح مسلم» (٢٦٩٤).

(٣) «فتح الباري» (١١ / ٢٠٨).

(٤) «الفتح» (١٣ / ٥٤١).

(٥) عن بعض العلماء. كما في «الفتح» (١١ / ٢٠٨).

إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال؛ كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام؛ فلا تظن أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته؛ أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح(١). اهـ.

فصل

وأعني بالذكر المضاعف نحو قول: سبحان الله عدد خلقه، كما في قول رسول الله ﷺ لأبي أمامة رضي الله عنه:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ؟ تَقُولُ: الحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، الحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، الحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، الحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالحَمْدُ للهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالحَمْدُ للهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ، تَعَلَّمْهُنَّ وعَلِّمْهُنَّ عَقِبَكَ مِن بَعْدِكَ»(٢).

قال ابن القيم(٣): قولك: «الحمد لله عدد ما خلق في السماء،

---

(١) قلت: من أدمن الذكر متفهماً لمعناه، متدبراً له، حاضراً قلبه فيه، معظماً للمذكور سبحانه؛ لا يمكن أن يكون من أهل المعاصي العظام المنتهكين لمحارم الله؛ إذ أن ذكره لله عز وجل بهذه الصفة يصدّه عن المعصية كما تقدم، وأما أن يُحجر الأجر الوارد في الحديث على أهل الشرف والمقامات العالية في الدين؛ فهذا يحتاج إلى دليل، والله أعلم.

(٢) «صحيح الجامع» (٢٦١٢). وانظر: «الترغيب والترهيب» (٢ / ٤٤٠).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ١١٢).

وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق»؛ أفضل من مجرد قولك: «الحمد لله». اهـ.

وأما الذكر المركب المضاعف من الكلمات الأربع؛ فنحو: سبحان الله وبحمده عدد خلقه؛ كما في «صحيح مسلم»(١) عن جويرية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قالت: نعم. قال النبي ﷺ:

«لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

فصل

ومن الأذكار الفاضلة التي ينبغي المحافظة عليها والإكثار منها: قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ ففي «مسند أحمد»(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال:

«أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ».

وعن قيس بن سعد بن عبادة: أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه، قال: فَمَرَّ بي النبي ﷺ وقد صليت، فضربني برجله وقال:

---

(١) (رقم ٢٧٢٦).

(٢) (٢ / ٣٣٣). وصححه الألباني لغيره في «الصحيحة» (٤ / ٣٣).

«أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟» قلت: بلى. قال: «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ»(١).

ومن أهم الأذكار التي يحتاج العبد للإكثار منها وملازمتها: الصلاة على النبي ﷺ، وذلك بأي صيغة من الصيغ التي وردت في التشهد، وثبت في فضلها أحاديث كثيرة، من أجمعها ـ فيما أعلم ـ ما في «مسند أحمد»(٢) عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يُرى في وجهه البِشر. قالوا: يا رسول الله! أصبحت اليوم طيب النفس يُرى في وجهك البِشر! قال:

«أَجَلْ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً؛ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨١)، والحاكم (٤ / ٢٩٠)، وأحمد (٣ / ٤٢٢).
وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين».
والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٣٢٧).

(٢) (٤ / ٢٩). وأخرجه النسائي (٣ / ٥٠) بنحوه مختصراً، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٥٧).

(٣) أخرجه النسائي (٣ / ٥٠)، واللفظ له، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٣)، والحاكم (١ / ٥٥٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أيضاً أحمد (٣ / ١٠٢ و٢٦١) وغيره.

قال الشوكاني[1]: فانظر إلى هٰذا الأجر العظيم والجزاء الكريم: يصلي العبد على الرسول ﷺ واحدة فيصلي عليه خالق العالم ورب الكل عز وجل عشر مرات! فهٰذا ثواب لا يعادله ثواب، وجزاء لا يساويه جزاء، وأجر لا يماثله أجر.

فليستكثر من شاء الاستكثار من الخير؛ فإن هٰذا العبد الحقير الذي هو أحد مخلوقات الرب سبحانه يقول بلسانه هٰذه الصلاة مرة؛ فيرد الله عليه عشر مرات؛ فهل دليل على الرضا والمغفرة والمحبة من الرب للعبد أدل من هٰذا الدليل، وأوضح من هٰذه الحجة؟!

اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد عدد ما صلى عليه المصلون منذ بعثته إلى الآن، وعدد ما سيصلي عليه المصلون من الآن إلى انقضاء العالم.

وقال[2] بعد أن أشار إلى ما ورد في فضل الصلاة على النبي ﷺ: ومن نظر بعين المعرفة في هٰذا، وفهم معناه حق فهمه؛ طار بأجنحة السرور والحبور إلى أوكار الاستكثار من هٰذا الخير العظيم، والأجر الجسيم، والعطاء الجليل، والجود الجميل؛ فشكراً لك يا واهب الجزل ومعطي الفضل.

فصل

ومما ينبغي المحافظة عليه دائماً: أذكار الصباح والمساء، والنوم والاستيقاظ، ودبر الصلوات المكتوبات، وقد رتب الشرع عليها أجوراً

---

(١) «قطر الولي» (ص ٣٨٩).

(٢) «قطر الولي» (ص ٣٩٠).

عظيمة، وثماراً كثيرة، وفوائد جليلة، لا يُتصور أن يعلم بها ذو لب ثم يغفل عنها، أو يعدل عنها إلى الأوراد المبتدعة؛ فعليك أيها الموفق بتعاهد ما صح عن نبيك ﷺ؛ حفظاً لألفاظه، وتدبراً لمعانيه.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«لَأَنْ أَقْعُدَ أَذْكُرُ اللهَ، وَأُكَبِّرُهُ، وَأَحْمَدُهُ، وَأُسَبِّحُهُ، وَأُهَلِّلُهُ؛ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ رَقَبَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَمِنْ بَعْدِ العَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ؛ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ». قال: قال رسول الله ﷺ: «تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»(٢).

قال الشوكاني(٣): ومن أكثر الأذكار أجوراً وأعظمها جزاءً الأدعية الثابتة في الصباح والمساء؛ فإن فيها من النفع والدفع ما هي مشتملة عليه.

فعلى من أحب السلامة من الآفات في الدنيا، والفوز بالخير الآجل والعاجل، أن يلازمها ويفعلها في كل صباح ومساء؛ فإن عسر عليه

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٢٥٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١ / ١٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٨٦)، وقال: «حديث حسن غريب»، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١ / ١٨٨): «حسن».

(٣) «قطر الولي» (ص ٣٨٦).

الإتيان بجميعها أتى ببعض منها.

قال: وكذٰلك ينبغي ملازمة ما يقال عند النوم وعند الاستيقاظ؛ فإن ذٰلك هو الترياق المجرب في دفع الآفات.

فصل

ويلزم المؤمن الذاكر لله عز وجل: أن لا يغفل عن طلب حاجات دينه ودنياه من مولاه الرحمٰن الرحيم، الذي بيده ملكوت كل شيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»(١).

ومن أعظم الأدعية النبوية سؤال المعافاة في الدنيا والآخرة؛ ففي «سنن ابن ماجه»(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا العَبْدُ أَفْضَلَ مِنْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ المُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

وعن معاذ بن رِفاعة، عن أبيه؛ قال: قام أبو بكر الصديق على المنبر، ثم بكى، فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر، ثم بكى فقال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، والبخاري في «الأدب» (٧١٣)، والحاكم (١ / ٤٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه أحمد (٢ / ٣٦٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب» (رقم ٥٤٩).

(٢) (٣٨٥١). وهو في «الصحيحة» (رقم ١١٣٨).

«اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَداً لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْراً مِنَ العَافِيَةِ»[1].

قال الشوكاني[2]: قوله: (العفو): هو التجاوز عن العبد بغفران ذنوبه، وعدم مؤاخذته بما اقترفه منها.

و (العافية): هي دفاع الله عن العبد، وهٰذا الدفاع المضاف إلى الاسم الشريف يشمل كل نوع من أنواع البلايا والمحن؛ فكل ما دفعه الله عن العبد منها؛ فهو عافية.

قال: سأل النبي ﷺ ربه سبحانه وتعالى أن يرزقه العفو؛ الذي هو العمدة في الفوز بدار المعاد، ثم سأله أن يرزقه العافية؛ التي هي العمدة في صلاح أمور الدنيا، والسلامة من شرورها ومحنها؛ فكان هٰذا الدعاء من الكلم الجوامع والفوائد النوافع؛ فعلى العبد أن يستكثر من الدعاء بالعافية، وقد أغنى عن التطويل في ذكر فوائدها ومنافعها ما ذكره رسول الله ﷺ في هٰذا الحديث؛ فإنها إذا كانت بحيث أنه لم يعط أحد بعد اليقين خيراً منها؛ فقد فاقت كل الخصال، وارتفعت درجتها على كل خير. اهـ.

ومن أهم الأدعية قول السائل: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، عن أوسط بن إسماعيل البجلي، وأحمد (١ / ٤) عن أبي هريرة، و (١ / ١١) عن أبي عبيدة.
وصححه شيخنا حفظه الله.

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ٣٠٥).

ففي «صحيح مسلم»[1]: حدثني زهير بن حرب، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك، عن أبيه؛ أنه سمع النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: يا رسول الله! كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال:

«قُلْ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، وَارْحَمْنِي، وعَافِنِي، وارْزُقْنِي»، ويجمع أصابعه إلا الإبهام، «فَإِنَّ هٰؤلاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْياكَ وآخِرَتَكَ».

فصل

ومما ينبغي ملازمته والإكثار منه في الليل والنهار: الاستغفار؛ فإن حاجة العبد إليه عظيمة جداً، أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب؛ إذ أنه كثير الخطأ، كثير الزلل، إن لم يقيده هواه، ولم تأسره شهوته، ولم يسجنه شيطانه؛ فلا بد من غفلته وتقصيره في حق مولاه.

وعن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ في صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفاراً كَثِيراً»[2].

وعن الزبير رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ؛ فَلْيُكْثِرْ فيها مِنَ الاسْتِغْفارِ»[3].

وفي «صحيح البخاري»[4] عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن

---

(١) (رقم ٢٦٩٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٥)، وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع» (برقم ٣٨٢٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١ / ٤٤٠ ـ ٤٤١ / رقم ٦٤٨) وغيرُه، وهو في «الصحيحة» (٢٢٩٩).

(٤) (١١ / ٩٧ و١٣٠ ـ «فتح»).

النبي ﷺ:

«سَيِّدُ الاسْتِغْفارِ أنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إلهَ إلاَّ أنْتَ، خَلَقْتَني وأنَا عَبْدُكَ، وأنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأبُوءُ لَكَ بِذَنْبي، اغْفِرْ لي؛ فإنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاَّ أنْتَ». قال: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهارِ مُوقناً بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ؛ فَهُوَ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فماتَ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ».

فصل

والأذكار الثابتة عن النبي ﷺ كثيرة جداً، أشرت إلى بعضها تنبيهاً على غيره.

فينبغي للمجتهد الفطن أن يتعلمها ويحفظها، ويعطيها من وقته ما تستحقه، وعليه أن يتدبرها ويفتش عن معانيها؛ فإنها ـ والله ـ مشتملة على فوائد كثيرة، ولطائف دقيقة جميلة، وحكم فريدة، وأسرار عجيبة جداً[1]، فحرام على مسلم أن يضيع من عمره كذا سنة ولم يتنبه بعد لها، ولكن التوفيق بيد الله عز وجل، يهبه من يشاء من عباده، وأبعدهم عنه من ضيَّع وقته في «حزب البحر» و«حزب البر» و«ورد فلان» و«ورد علاّن»، وعظَّمها جداً، وما بَهَرَه كلامُ من أعطي مفاتيح الكلم[2] ﷺ، ولكن ماذا تفعل بقلوب لا تستحق أن يكون فيها كلام

---

(١) قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١ / ٥٩): «وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال».

(٢) ثبت من قوله ﷺ: «أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الكَلِمِ»، وهو قطعة من حديث أخرجه البخاري =

رسول الله ﷺ، وما الحيلة في جذبها إلى السنة وقد أعرضت عنها؛ فأعقبها الله تعالى إعراضاً فوق إعراضها جزاءً منه وفاقاً؟!

فصل

ومن أعظم الدعاء: الدعاء بأسماء الله الحسنى، وقد أمر الله تعالى به في كتابه الكريم؛ فقال جل وعلا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(١).

قال ابن سعدي(٢): أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها، ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه؛ فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق؛ فليسأله باسمه الرَّزَّاق، ولحصول رحمة ومغفرة؛ فباسمه الرحيم الرحمٰن البر الكريم العفو الغفور التواب، ونحو ذٰلك.

وأفضل من ذٰلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذٰلك

= (٦ / ١٢٨ و١٢ / ٣٩٠ و٤٠١ و١٣ / ٢٤٧ ـ «فتح»)، ومسلم (٥٢٣)، وغيرهما، من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٢٢ / ٥٢٥): «من أشد الناس عيباً من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده».

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) «القول السديد» (ص ١٥٧ ـ ١٥٩).

باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب، حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلىء بأجل المعارف؛ فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيماً لله وإجلالاً له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقاً له، وحمداً له وشكراً.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعاً لله وخشوعاً، وانكساراً بين يديه.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسةً للخواطر عن الأفكار الرَّدية والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقاراً واضطراراً إليه، والتفاتاً إليه كل وقت في كل حال.

فهٰذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وتعبده بها لله؛ لا يُحَصِّل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه.

ومن انفتح له هٰذا الباب؛ إنفتح له باب التوحيد الخاص والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين.

وقال[1]: ينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من

---

(١) «المواهب الربانية» (ص ٦٢).

مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هٰذه المسألة أهم المسائل عنده، وأولاها بالإيثار، وأحقها بالتحقيق؛ ليفوز من الخير بأوفر نصيب، ولهٰذا لما سأل النبي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ في صلاته، فقال: لأنها صفة الرحمٰن؛ فأحب أن أقرأ بها، فقال: «حُبُّكَ إِيَّاها أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ». متفق عليه[1]؛ فثبت أن حب العبد لصفات الرحمٰن، وملازمة تذكرها، واستحضار ما دلت عليه من المعاني الجليلة، والتفهم في معانيها؛ من أسباب دخول الجنة.

وطريق ذٰلك أن يجمع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسماً، وفي السنة زيادة على ذٰلك[2]؛ فيتدبرها ويعطي كل اسم منها عموم ذٰلك المعنى وكماله وأكمله[3].

---

(١) هٰذا الحديث ليس في «صحيح مسلم»، بل ولا في «البخاري»؛ إلا تعليقاً (٢ / ٢٥٥ ـ «فتح»)، لٰكن وصله الترمذي عن البخاري (برقم ٢٩٠١ ـ شاكر)، وقال شيخنا حفظه الله: «حسن صحيح». وانظر: «فتح الباري» (٢ / ٢٥٧).
وقول الصحابي: «لأنها صفة الرحمٰن؛ فأنا أحب أن أقرأ بها» ليس في هٰذا الحديث، إنما هو في حديث آخر، رواه البخاري (١٣ / ٣٤٧ ـ «فتح»)، ومسلم (٨١٣).
وقد قال النبي ﷺ في حق هٰذا الصحابي ـ وهو غير الأنصاري؛ كما في «الفتح» (٢ / ٢٥٨) ـ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».
وبهٰذا يظهر أن ابن سعدي ـ رحمه الله ـ قد خَلَطَ بين الحديثين.

(٢) من الأسماء الحسنى الثابتة في السنة: السيّد، والطبيب، والشافي، والحَكَم، والسِّتِّير، والحَيِيّ، والقابض، والباسط، والمحسن، والرفيق، والطيّب، والجواد، والجميل، والمنّان، والسُّبُّوح، والمُسَعِّر.

(٣) انظر بقية كلامه، وهو فريد في بابه، عزيز في فوائده.

وقال ابن القيم[1]: أكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يَطَّلع عليها البشر؛ فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم»، أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي»[2] عن عبودية اسمه «المانع»، أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم»، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، ونحو ذٰلك.

وهٰذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[3]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

* * *

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٢٠).

(٢) قلت: لا شك أن الإعطاء والمنع والانتقام من الأوصاف الثابتة لله عز وجل، أما كون «المعطي» و «المانع» و «المنتقم» أسماء لله تعالى؛ فهٰذا يفتقر إلى دليل صحيح؛ إذ كل اسم صفة وليس العكس، ولو كان العكس يصح؛ لكان «الماكر» و «القاتل» و «المدمدم» من أسماء الله تعالى، ولكان «المخادع» من أسماء الله تعالى، في الوقت الذي لا يرضى أقل الناس أن تسمّيه بهٰذه الأسماء.

(٣) الأعراف: ١٨٠.

خاتمـة

اعلم يا من عزمت على المواظبة على ذكر الله عز وجل: أنك في كل طرفة عين محتاج إلى توفيق الله تعالى وإعانته لك؛ فعليك بالالتجاء إليه سبحانه على الدوام، وسؤاله أن يعينك على ذكره ذكراً كثيراً.

وقد روى أبو عبد الرحمٰن الحُبُلِيُّ، عن الصُّنابِحيِّ، عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله أخذ بيده وقال:

«يا مُعَاذُ! واللهِ إنِّي لأُحِبُّكَ، واللهِ إنِّي لأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يا مُعاذُ: لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقولُ: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وأوصى بذٰلك معاذٌ الصنابحيَّ، وأوصى به الصنابحيُّ أبا عبد الرحمٰن[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣ / ٥٣)، وابن حبان (٣ / ٢٣٤ ـ «إحسان»)، والحاكم (١ / ٢٧٣) ـ وصححه، ووافقه الذهبي ـ، وأحمد (٥ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥ و٢٤٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٧٥١)، وغيرهم.
وصحح إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (١ / ٢٩٩ / رقم ٩٤٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«أتُحِبُّونَ أنْ تَجْتَهِدُوا في الدُّعاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ وذِكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول:

«رَبِّ أعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ، واهْدِني وَيَسِّرِ الهُدَى لي، وانْصُرْني على مَنْ بَغَى عليَّ، رَبِّ اجْعَلْني لَكَ شَكَّاراً، لَكَ ذَكَّاراً(٢)، لكَ رَهَّاباً، لَكَ مِطْواعاً، لَكَ مُخْبِتاً، إلَيْكَ أوَّاهاً مُنيباً، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتي، واغْسِلْ حَوْبَتي، وأَجِبْ دَعْوَتي، وَثَبِّتْ حُجَّتي، وسَدِّدْ لِساني، واهْدِ قَلْبي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْري(٣)»(٤).

وقال ابن القيم(٥): من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته؛ وجد ذٰلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته؛ فيعسر عليه اشتغاله بالله

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٢٩٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» برقم (٨٤٤).

(٢) أي: كثير الذكر.

(٣) أي: غشه وغله وحقده. «تحفة الأحوذي» (٩ / ٥٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥١٠ و١٥١١)، والبخاري في «الأدب» (٦٦٦)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وابن حبان (٢ / ١٤٩ ـ «إحسان»).

وصحح إسناده الألباني في «تخريج السنة» (١ / ١٦٨).

(٥) «طريق الهجرتين» (ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ ـ ط. قطر).

وحضوره معه عند الموت، ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هٰذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان؛ لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد؛ فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. اهـ.

و «سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[1].

وكتب

محمد شومان

***

---

(١) أخرجه الحاكم (١ / ٥٣٧) وغيره، عن جبير بن مطعم؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ . . . فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ كَانَتْ كَالطَّابَعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ».

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١ / ١٢٠).

فهرس الموضوعات

* * * * *